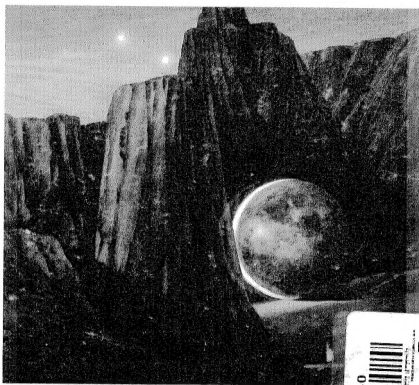


ديفيد معلوف
حياة متخيلة
أوفيد في المنفى



رواية
ترجمة
سعدى يوسف

دار المدى

0158461



Bibliothèque Alexandrina



General Organization of the Alexan-
dria Library (GOAL)

Bibliothèque : Alexandrie

حياة متخيلة

هذا النص ترجمة كاملة لكتاب :

**AN
IMAGINARY
LIFE**

**A NOVEL BY
DAVID MALOUF**

Copyright 1978 by David Malouf

ديفيد معلوف : شاعر وزوائي أسترالي ، ولد في باريس بان
بأستراليا . درّس في إنجلترا عشر سنوات قبل عودته إلى أستراليا
حيث حاضر في جامعة سيدني حتى العام ١٩٧٨ .

إقامته الآن موزعة ، بين سيدني وإيطاليا . حصل ديفيد معلوف
على جوائز أدبية عدّة ، بينها جائزة باسكال في العام ١٩٨٨ .

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

ديفيد معلوف

حياة متخيلة



General Organization of the Alexandria Library (G.O.A.L.)
Bibliothèque d'Alexandrie

رواية

ترجمة

سعدى يوسف

المكتبة العامة لاسكندرية

رقم القفس: 813

رقم التسجيل: ٥٢٥٥

الناشر : دار المدى

تلفاكس ٦٩٥١٥٠ (٩٦٢-٦) ص.ب ١٨٣٧٦٤ عمان - الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦ / ٢ / ١٩٠)

رقم التصنيف : ٨١٣

المؤلف ومن في حكمه : ديفيد معلوف

ترجمة : سعدي يوسف

عنوان المصنف : حياة متخيلة (أو فيد في المنفى)

رؤوس الموضوعات : ١- القصة العربية المترجمة

رقم الإيداع : (١٩٩٦ / ٢ / ١٩٠)

الملاحظات : عمان ، دار المدى للثقافة والعلوم

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

لوحة الغلاف للفنان الأسترالي أنيسلي روبرتس

إلى كريستوفر

ليس بمقدوري أن أقول متى رأيت الطفل أول مرة. أنا أرى نفسي - ربما كنت في الثالثة- أو الرابعة - ألعب تحت شجيرات الزيتون عند طرف مزرعتنا، على مقربة يسيرة من راعي الماعز، وأنا أتكلم مع الطفل، لا أستطيع القول، وأنا في هذا البعد، إن كان ذلك للمرة الأولى أم لا. راعي الماعز ينعس مستنداً إلى جذع زيتونة، وقد مال رأسه إلى الوراء، ليكشف خطاً فكه الأسود وعصب رقبته القوية، والفم الأسود الفاجر. النحل يتنقل بين العشب. الهواء يتألق. يجب أن يكون الوقت صيفاً في أواخره. في العشب كانت شقائق نعمان تميل بها الريح. تيس أسود كان منتصباً على قائمته الخلفيتين ليبلغ وريقات الكرّم.

الطفل هناك. أنا في الثالثة أو الرابعة من عمري. الصيف في أواخره. إنه الربيع. أنا في السادسة. أنا في الثامنة. والطفل في السن ذاتها دائماً. أنا والطفل نتكلم، بلغة من صنعنا. شقيقي الذي يكبرني بعام، لا يراه، حتى حين يكون بيننا، جدّ قريب.

إنه ولد متوحش.

لقد سمعت رعاة الماعز يتحدثون عن ولد متوحش، ولست أدري إن كانوا يعنون هذا أو آخر، وأنا، بالطبع لم أعرّف لهم، أو لأي شخص. بأني أعرفه. الولد المتوحش الذي يتحدثون عنه يحيا بين الذئاب، في الوهاد إلى الشرق، وراء مزارع ودارات واديننا المروي جيداً.

الذئاب هناك حقاً. سمعت حكايات عن إغارتها على المراعي القصية، وأظنني سمعت مرةً أحد هذه الذئاب يعوي في الثلج. أو

ربما كان الطفل. وقد رأيت رأس ذئب جاء به أحد الصيادين ليعلقه في حظيرته تحذيراً. كان أغبر إلا أن مرآه لم يكن شديد الضراوة، بالرغم من انكماش اللحم الذي أبرز الفك ذا الأنياب. فكرت بالطفل، وكيف يجب أن يكون في طبيعة الذئاب شيءٌ رفيق يجمعها بنوعنا نحن البشر، وإلا كيف استطاع الطفل العيش بينها؟ المخيف كان الطريقة التي قطع بها الرأس، وحبال الدم الأسود تلك المتدلّية منه، والفرو عند الرقبة المسدّد بالدم. فيما بعد، سمعت ربما من رعاة الماعز ثانيةً، أن في طبعنا شيئاً من الذئاب، وأن في طبع الذئاب شيئاً منا، إذ ما زال ثمت رجالٌ، يمكن أن يحولوا أنفسهم، في منازل معينة من القمر، إلى ذئاب. إنهم يغلقون ذهنهم البشري مثل قبضة، وحين يفتحونها ثانيةً تكون كفّاً ذات برائن ذئب. الجمجمة تتنأ، والفك يبرز ليكون خطماً. الشعر يخشوشن على امتداد العمود الفقري، وينمو خشناً على البطن. والجسم يتهدل فيكون على أربع، والصوت يغلظ. إنه القمر يُسيرهم. أمنتُ بهذه الأشياء أيامها، وتساءلت: أكان الطفل ولداً ذئباً؟ أكان أولئك الرجالُ الذئابُ الذين يعيشون بيننا سرّاً، مغيّرين أنفسهم بآلم، حسب أوامر القمر، أكان أولئك الرجال أطفالاً قُبضَ عليهم في البراري، وجيء بهم بيننا، ليتكيفوا وطرائق الناس؟

بعد فترة، حين شرع جسدي يتغير، واكتشفتُ أولى علائم الرجولة فيّ، تركني الطفل. ولم يُعد إلى الظهور، مع أنني رأيتُه كثيراً في ما يرى النائم، تلك السنوات المبكرة، وظللت أحلم به مذّاك. نسيّت اللغة التي إستعملناها، وأعتقد أننا لم يعد بمقدورنا

أن نتفاهم لو ظهر ثانيةً. أكانت عنده رسالة لي آنذاك؟ لو كان الأمر هكذا فأعتقد أنه فشل في إبلاغها. أو أنه أبلغني الرسالة لكنها انسلت من ذهني. أو أن اللغة التي استعملها، مهما كانت المناسبة، قد تجاوزت فهمي، ولم تمكن ترجمتها في لغة الكلام اليومي. أعتقد (أظنني اعتقدت دائماً) أنه سيعود، لكن في أي حياة؟ هل سيعود، كما كان، طفلاً؟ أم رجلاً في مثل سنّي؟ أم ذنباً؟ أم أن لديه القدرة على اتخاذ هيئات أخرى أيضاً؟ أترأه عاد إليّ، فعلاً، في حياة هي من التواضع والعادية بحيث أخفقت في إدراك حضوره؟

أنا لا أخبر أحداً بهذا، فأنا طوال كل تلك السنوات السالفة كنت حريصاً على ألا أعترف لأحد بأنه كان هناك - حتى شقيقي الذي هو في مثل سني وكان بإمكانه أن يفهم. تحت شكوكي كلها، هذه البذرة من الإيمان.

1

وحشة هذا المكان هي التي تملأ ذهني، يوماً بعد يوم، بمنظوراتها. خطُّ من الجروف، منحرف إزاء السماء، والبحر رصاصي بعده. وإلى الغرب والجنوب، جبال، مكدسة تحت الغيم. إلى الشمال، وراء مصبِّ النهر المنقَع، سهوب عشبية خاوية، تمتد إلى القطب.

لثمانية شهور في العام يتجمد العالم. وتهب أنفاسُ لعنة قطبية على الأرض. الأرض تبيضُ بين ليلة وضحاها. وحين يرتخي الثلج أخيراً، ويزوب، يُوحلُّ السهل كله وينتن، وتغزونا الحشرات، والضباب الساخن ينفث بخاراً بين الأعشاب المتطاولة. لم أجد هنا شجرة ترتفع بين الشجيرات الرمادية البنية الخفيفة. لا زهرة. لا ثمرة. إننا في نهايات الأرض. حتى الأنواع العليا من الخضروات لم تبلغنا بعد، ونحن على مبعدة قرون من فكرة بستان أو حديقة للمتعة حسب. البلاد تمتد مفتوحة من كل جانب، مسورة إزاء الغرب والجنوب، مستوية إزاء الشمال، والشمال الشرقي، مع نظرة إلى اللانهاية.

الإنحراف الحاد للجروف يؤدي إلى السماء. بطائح النهر، شجراء الإفسنتين، السهوب العشبية فيما بعد، كلها يؤدي إلى سماء معلقة، خفيفة، فوقنا، مثقلة بالثلج، أو خاوية على مدى ما تراه العين، أو يتخيله الذهن، سماء بلا غيوم، بلا أجنحة.

لكنني أصفُ حالة ذهنية، لا مكاناً.

أنا، منفي، هنا.

تتألف القرية المسماة " تومس " من مائة كوخ أقيمت بالأغصان المضفورة والطين، سقوفها قش، وأرضياتها طينٌ مضروبٌ مغطى بالأسل. في كل كوخ ساحةٌ مسورةٌ، وزربيةٌ تأوي إليها الحيوانات، وتربط فيها شتاء. فوق الزربية غرفة واحدة واسعة، ننام فيها ونأكل حين الشتاء، على مصاطب خشب تحتها طبقة من الخُث بطيء الاحتراق. في الصيف تُفتح بقية البيت، وتكون لي غرفة خاصة، ذات طاولة منخفضة للكتابة، وحشية قش نظيف. حياتي هنا عريضةٌ إلى أبسط الشروط. أنا أعيش هنا مع شيخ القرية المكلف بمراقبتي، وربما بالإجهاز عليّ، حين يحل الوقت. أهل البيت هم شيخ القرية، وأمه (عجوز في حوالي الثمانين)، وكنته وطفلهما. إنهم أناسٌ خشنون، طيبون، والشيخ مع أنه بربري، يعاملني باحترام ما، نظراً لمنصبي السابق. وقد أهمل، وأترك لشأني، أتجول في القرية، أو أتمشى في الحقول حتى المدى الآمن. وليست بهم حاجةٌ إلى أن يخشوا فراري. إذ ليس لي وجودٌ رسمي، في كل العالم المعروف، حيث يحكم الإمبراطور. بعد هذا المخفر المتقدم الأخير: المجهول. حتى لو افترضتُ أن لديّ القوة على الفرار في وضعي الحاضر، فأين تراني سأذهب؟

أتمشى حول قلعة الطين الصغيرة، أو أتجول في الشجراء، لكنني لا أمضي، البتة، أبعد من مرأى الأسوار، ففي كل وقت، يمكن أن تتعرض القرية لهجوم المتوحشين الذين يسكنون السهوب العشبية إلى الشمال، والذين يأتون في فترات منتظمة، مجموعات عاوية، ليسرقوا أنعامنا، أو يحرقوا الحقول القصية. القرية كلها معسكرٌ مسلح. وأنا المرء الأقل شأنًا هنا- مخبولٌ، عجوز

مضحك، عجيب، مترقرق الدمع، لا يفهم شيئاً، ولا يستطيع أن يقول شيئاً، كما تبدو عاداته لهؤلاء الناس الصارمين، متنافية بصورة غير معقولة، مع حقائق حياتنا اليومية. إنهم يطعمونني، ويهيئون لي ركناً أنام فيه. هم ليسوا غير مهذبين. لكن لا أحد في "توميس" ينطق بلغتي، والآن، وبعد حوالي العام، لم أسمع كلمة واحدة من لغتي، حتى أمسيتُ أبكم. إنني أتواصلُ، مثل طفل، بالغماغم والإشارات. أنا أشيرُ، أرفعُ حاجبيّ مستفهماً، وتتفجر دموع فرحي لو أن أحداً - حتى لو كان طفلاً - يفهم ما أحاول قوله.

في الخلاء، أدأبُ على الصراخ، وأحدثُ نفسي، لأنني ببساطة، أريد أن أحتفظ بالكلمات في رأسي، أو أن أخرجها منه؛ أيامي في هذا المكان، وليالي، رهيبَةٌ، يعجز عنها الوصف. النهار كله أشرد في حلم، معزولاً عن عالم البشر، كأني من طينة أخرى. في الليل، أكتشفُ وأنا نائمٌ، ما حجبته عني ضوء النهار البسيط: أن الجانب المظلم في كل شيء هنا، وأكثر من ذلك، المشهد نفسه حين تهبط عليه ظلال الليل، هو صفحة واسعة أعجزُ عن حل لغتها، وعن ترجمة رسالتها إليّ. وحلماً بعد حلم، أغامرُ بعيداً، وراء الحقول الحبيبة، وعبر السهل الموحش الذي يتلوها، في الأراضي العشبية، خلف طرف عالمنا. الريح تهبُّ عليها، فتجيش مثل البحر، هسهسةً وأنياءً، والهواء مليء بأجنحة الهوام. أركعُ على ركبتيّ، وأشرع أحفر الأرض بأظفاري الطويلة. أحياناً تأتي الذئاب، وتنشب بمخالبها الأرضَ إلى جانبي، وهي تعوي. نحن نحفر معاً، وهي لا تعيرني من انتباهها أكثر مما تعيره لشبح.

لكنني أعرف أنني سأكتشف قبلها ما تبحث عنه، مهما كان، وإلا ضعت. هكذا أحفر، أقوى، وأسرع. وضوء القمر يسقط دبقاً عليّ. أنا عاجزٌ عن أن أُسرّ لنفسي: هذا حلم.

أنا أعرف ما تبحث عنه. إنه قبر الشاعر أوفيد - ببليوس أوفيدوس ناسو، رومانيّ من الفرسان، شاعر. في هذا المكان الموحش كله. لا أحد يعرف أين يثوي.

سُمِّي ناسو بسبب الأنف.

أنا أكلمك، أيها القاريء، باعتبارك تعيش في قرن آخر، فهذه الرسالة لن أرسلها أبداً. إنها ليست موجهة إلى زوجتي أو إلى محاميّ في روما، ولا حتى للإمبراطور، بل هي موجهة إليك، أيها الصديق المجهول، غير الموجود في زمن كتابتي هذا، والذي لا أستطيع أن أتخيل وجهه، وحتى هيأته. أبعقدور امريء أن يتخيل وجه إله؟ إذ يجب، أكيداً، وأنت في بُعدك العظيم عنا، أن تكون - الإله الذي شرع يحرك أعماقي، ليستجمع كينونته منا، وسوف يستجمعها، في الطرف الآخر من العصر العظيم الذي همز عالمنا بزلزله، قد أقفلح أخيراً، وبدأ يتكوّن.

أنا ألقى برسالتي إلى القرون، غير متأكد في أي مشهد من الأشياء غير المألوفة سوف ترى النور، وبأي عيّن ستقرأها. هل اللاتينية لا تزال معروفة لديك؟ أنا أدفن الرسالة عميقاً في الجليد، في أحد القبور التي ختم على أحجارها الجليد الذي لن يذوب، وحيث لم يخاطر، البتة، واحدٌ من عالمنا الرومانيّ. فقط، بعد ألف

سنة، حين تكون الإمبراطورية سقطت، ولم تعد لديها سلطة
إخراشنا، سوف تصل هذه الرسالة سليمةً بين يديك. أنا الشاعر
أوفيد- ولدت على الطرف بين منزلين من دائرة البروج، حيث
الأسماك تسحب في اتجاهاتها المعاكسة، ليهبط أسفل الأفق،
والكبش يصعد، بين عصرين، الأعوام الألف للآلهة القدامى التي
ترتعد لنهايته، والعهد الجديد الذي سيصل إلى أزمته في نقطة
بعيدة من المستقبل أعجز عن إدراكها، وحيث تجلس أنت، أيها
القاريء، في غرفة مضاءة لا أُمَيِّزُ أثاثها، أو في الضوء المتأخر
لبستان أجهل ازهاره، لترجم هذه الرسالة - وبأي صعوبة؟ -
إلى لغتك.

أسمعت باسمي؟ أوفيد؟ أما زلتُ معروفًا؟ هل أفلت أحد سطور
كتابتي من منع كتبي في المكتبات، ومن إحراقها في الساحة العامة،
ومن نفيي عن اللغة اللاتينية؟

هل خبأ معجبٌ سريٌّ إحدى قصائدي فأحتفظُ بها، أو حفظها
غيباً؟ أما زالت أبياتي تنتقل سرّاً، في مكان ما، من فم إلى فم؟ هل
انسلَّ أحد تعابيري، بدون انتباه السلطات، مقتطفاً في قصيدة
شاعر آخر، أو في رسالة؟ أو في قولٍ سائرٍ لا يمكن ان يمحي الآن؟
هل بقيتُ حياً؟

اكتب هذا، في ضوء شمعة. هذه الغرفة التي بلا نافذة، مظلمة
كالليل. عناكب صغيرة وحشرات أخرى تعيش في سقف
القش، وتزحف على الأرضية، وتسقط في شعرك، أو في صحن

حسائك وأنت تأكل، وثنايا ثيابك تعجُّ بها. أنت تعتاد هذا الأمر بعد فترة.

لم تكن لي، البتة، صلةً بالمخلوقات قبل هذه، حتى ولا الكلاب أو القطط. الآن أجد فيها شيئاً غريباً قابلاً للعلاقة. فهي، مثلي، غير قادرة على الكلام. إنها تتحرك بين الشقوق، في فجوات حيواتنا، وهي غير ضارّة. حتى العناكب، هذه المخلوقات البائسة. أتساءل إن كانت لديها لغة خاصة، كي أحاول أن أتعلّمها. إنه لأمر سهل مثل اتقان اللغة البربرية الحلقية التي ينطق بها جيراني.

بدأت أتبينُ بعض الأصوات في هذه اللغة. لكن مجرد سماعي الشيخ يصيح في الساحة بحفيده، أو يتمتم في الأصيل للمرأة الشابة، يكاد يجعلني أُجنُّ، أحياناً. الأمر مثل محاولتك تذكر شيء نسيته، يتقد على حدّ ذهنك، لكنه يرفض أن يكشف نفسه. أشعرُ أنني مقطوع كواحد من هذه العناكب، أو مثل فأر يترجّح على عارضة سقف وهو يسمع الشاعر يقرأ. لكأنني زلقتُ خطوةً إلى الوراء في نظام الأشياء، أو أنني مُسخت، بلعنة ساحرة، إلى نوع أدنى. بالطبع، لا ساحرة فعلت بي هذا. كل ما أستثير هو سلطة القانون. لقد أبعدتُ، بفعل أعلى سلطة معروفة، لأكون، حقاً، في نظام آخر لكائنات، أولئك الذين لم يصعدوا، عبر ثقب في رأسهم، ليكونوا بشراً مكتملين، أولئك الذين لم يلجوا، بعد، في ما نسّميه مجتمعاً، فيصبحوا رومانيين تحت القانون.

لكنهم، حتى هكذا، من نوعنا، هؤلاء الجيتيين. أنصت اليهم وهم يتكلمون. الأصوات بربرية، وتحنُّ روعي لصفاءات لغتنا

اللاتينية، تلك اللغة الكاملة، التي يمكن أن يعبرَ بها عن الأشياء كلها، حتى عن المنفى. أنا أنصتُ، ويهزُنِّي أكثرُ أنني أُمِرُّ النغمات. أعرف أن هذا النغم رَقَّةٌ، وهذا أسفٌ، وهذا غضب. هذا نغم شيخ يهديء طفلاً يعثر، يبكي، يحكي عن أوجاعه، ويجب أن يؤخذ بيده عائداً، كي يسمى الحجرَ الأسماءَ التي قد يتعرف عليها المرء في طفولته الأبعد: " الشرير، أيها الحجر الشرير! "

أما الآن، فثمت العناكب. أُمقَدوري أن أدوزنُ أذنيَّ لكلامها أيضاً؟ ما دامت هي كذلك يجب أن تتواصل. ربما أبداً، أكتبُ ثانيةً، بلغة العناكب. " مَسْخُ الكائنات الجديد للشاعر أوفيد في منفاه، بلغة العناكب. "

أحياناً، وأنا أتحول على غير هدى، أتوقفُ لأراقب النسوة يعملن في ساحة الدار، يفرزن الحبوب ويطحنها. إحداهن تصعد نظرها، وتعبس، أو تبتسم، من عالم ما، خاصَّ بها، أعجزُ عن لمسه. ثمت بذور عدَّة: ذهبية، صفراءُ مخضرة، زرقاء. أحزرُ ما يمكن أن يكون بعضها، لكنني لا أستعيد أسماءها. أنا أعرف، بالطبع، أسماء البذور، لكوني استخدمتها في قصائدي لجمالية الصوت نفسه: كزبرة. هال. لكن ليس لديّ فكرة عن أشكالها، باستثناء المعروف الشائع منها. مرةً أو مرتين، أخذت إحدى البذور بسبَّابتي، ووضعتها في راحتي، بينما كانت النسوة المندھشات ينظرن إليّ. وحدث مرةً، أن ضحكت صُغْراًهنَّ ونطقت بكلمة: كورشكا. نظرتُ إلى البذرة، وأومأت برأسها، كأنني طفل، وقالت ثانيةً وهي تدور شفتيها بصورة مبالغ، كور- شكاء، ثم وضعت إحدى البذور على لسانها، وقضمتها. فعلت الشيء نفسه،

لكنني لم أُمَيِّز الطعم. وحدها، وبدون المائة من الأعشاب والأفاويه التي يمكن أن تدخل معها في مطبخنا الروماني، لم تأتني البذرة بالصدمة التي تجعل ذائقتي تميّزها، ولم تفلح في أن تجيء باسم لها في ذهني. هكذا أعرف كلمة هذه البذرة الآن، وطعمها، وشكلها، ولونها، لكنني لا أستطيع أن أترجمها عائداً بها إلى تجربتي الخاصة.

أسيكون كل شيء هكذا، منذ الآن؟ أعليّ أن أتعلم كل شيء، من جديد، مثل طفل؟ أكتشف العالم كما يفعل طفلٌ صغير، عبر الحواس، لكن مع حرمان الأشياء كلها من السحر الخاص لأسمائها في لغتي؟

ليس بالإمكان قولُ شيء عن قرينتنا سوى أن فيها نحو مائة كوخ. الأزقة الضيقة بين هذه الأكواخ، طينية. خنازير قليلة تتمرغ فيها، أو بضع وِزَات، والطين مكوّنٌ من جزء واحد تراب، والأجزاء التسعة الباقية هي نفاياتٌ موطوءة لهذه المخلوقات، منذ ألف جيل. أطفال عراة يخرجون من بيوتهم بعد المطر ليجلسوا في بُرك مع الوزّ، أو ليطاردوا الخنازير بين البيوت، صارخين، حتى أن أذنيّ لا تميزان صراخهم عن قباع الخنازير. وراء جدران الحاجز الدفاعي، قطعٌ قليلة مزروعة حبوباً، والنسوة يجمعن الحبوب ويّدقّقنها، وبين السيقان تنمو أعشاب ونباتات أخرى يجب أن تفرز باليد، من قمح، وشوفان بري وشعير. وليس لديهم شكلٌ للزراعة آخر.

الآن، منتصف الصيف. بطائح النهر ترسل أبخرتها، مع طنين

الذباب. لكن، بعد أسابيع قليلة ستأتينا أوائل الشتاء. رياح الشمال تهبّ عبر النهر، من السهوب السيثية، تبسط القصب، وتسوط الماء. الرجال، من الآن في الخارج، يقطعون كتلاً من الخُثْ سوف يكْدسونها أكْداًساً يتَّقون بها البرد. النساء يملأن الأهرء بالحبوب ولحم الخنزير المدخن الذي يعلقه من عوارض السقف. ما أن يتجمد النهر حتى يكون علينا أن نظل متأهبين خلف الحاجز الدفاعي، ليل نهار. وليل نهار يظل الرجال في الحراسة. النهر، حامينا اليوم، لكنه بعد شهرين من الآن سوف يكون جسراً جليدياً، وسوف تندفع القبائل من الشمال عبره، ناهبةً، مغتصبة، مشعلة النيران. إن أناسي هنا، هم متوحشون نسبياً. أما البرابرة الحقيقيون فعلياً أن أراهم فيما بعد. لقد حلمت بهم فقط.

في إحدى الليالي حلمت مؤخرًا، بأنني مشيت تحت ضوء القمر، في الطريق بين الأكواخ، أسمع الخناييص يقبعون خلفي، وأسمع غناء عظامهم المموصة، حتى بلغت ضوء المستنقعات الغريب. كان القمر يعتلي القصب، وقد نصف وجهه خطاً من الغيوم مثل عين مغمضة - عيني، نصف مستيقظة، ومفتوحة مثل عين اليوم، نصف مغمضة في العتمة.

سرت على النهر، الذي دوّم مثل الدخان تحتي، وكنت ضوءَ قمر. بلغت الضفة الأخرى. سهلٌ واسعٌ يمتد بعيداً، منبسطاً، بلا ملامح، كل شيء كان غباراً يدوّم تحتي، ومن الغبار لم يتحرك مخلوق، حتى ولا أفعى. كان المشهد أصلياً.

وفجأةً، ليس من غبار السهل، ولكن من السماء المدوّمة، جاء

حشدٌ من الأشكال، يندفع، مرعداً، نحوي - رجال، نعم، خيول، نعم، وفكرت في ما لا أومنُ به، وأعرف أنه يعود فقط إلى عالم خرافاتنا، حيث وجدت نفسي: القناطير. لكن هؤلاء لم يكونوا المخلوقات المروضة لأساطيرنا الرعوية. كانوا ضخاماً، وكانت رهيبة أنفاسُ منا خيرهم، ووقع حوافرهم وضوء خواصرهم المتموج. عرفت أن هؤلاء، كانوا آلهة. وبهم أيضاً، لا أومن.

وقفت صامتاً وسط السهل، وبدأوا يدورون حولي في دوائر ضخمة، مطلقين لا صرخات خبث، كما ظننت، بل صرخات رثاء. وكأنهم يقولون لي: "أدخلونا في عالمكم. دعونا نعبّر النهر إلى إمبراطوريتكم. إقبلونا في حيواتكم. آمنوا بنا. آمنوا".

وبطيئاً توقّفوا.

توقّفوا.

يتنفسون.

وحلّ صمتٌ، وسيع كالسهل، وسمعتُ دقات قلبي، مثل أخفت صدى لحوافرهم، وأنفاسي مثل أنفاسهم، تمرّق صدري. أحدّ هذه المخلوقات، ومن قوى الظلال التي أغلقت الأفق كله فوقي، تقدّم بطيئاً إليّ، واضعاً حوافره، بلطف، في التراب، وتوقّف على مبعدة قدم مني، بحيث أحسستُ بأنفاسه، ودفته، وحسبتُ أنني سمعتُ في دفّق أنفاسه صوتاً ذا مقاطع أقدرُ على تفسيرها. ثانيةً، كان النغم ما تعرفتُ عليه. وشرعتُ، كأني بلا لغة لي، أنصتُ إلى معنى آخر.

مددتُ يدي، ولمستّه.

وانبثق شيء من أعماق رقادي، إلى حد أننا وقفنا، الواحد يواجه الآخر، مثل انعكاس يصعد إلى سطح المرآة. إنه هناك، غريباً، خارج عني. ومن داخلي، خرج شيء كان انعكاسه، كي يلقاه.

أُفقتُ، صرخت. والكلمة التي أطلقْتُها لم تكن من لغتي.

حاولت، مُدّاك أن أتذكر تلك الكلمة، لكن الصوت كان غار في رقادي. لو استطعتُ أن أتذكر ذلك الصوت ثانية، فأظنني سأعرف ما كنت سمّيته، ما الذي واجهْتُهُ. وما ذلك الذي هناك، ينتظر أن يستقبلني.

لُقِّبْتُ "ناسو" بسبب الأنف.

لست أدري ما الذي كان يفعل جَدِّي بأنفه . أمّا أنا، فقد كان أنفي للأخبار – أخبار المجتمع، الأخبار التي تنتشر.

أنا في الأساس مخلوق اجتماعي. بعض الشعراء، فرجيل مثلاً، له أذن، ممتازة في كل شيء. أنا، لديّ أنف. والأنوف سياسة، حتى لو وضعْتها في أكثر الأماكن خصوصيةً. قد تكون أكثر سياسيةً آنذاك. الأنوف تسبب لك المتاعب. بإمكانني أن أشمّ جيداً ما يريد كل واحد أن يسمعه، ويبدأ يفكر في ما سمع، ويستمر في التفكير أيضاً، بمجرد أن أقوله.

كنا في سلام، بعد قرن من الحرب التي دمّرت فيها أُسرٌ كاملةٌ أسراً أخرى، باسم الوطنية. وأنا دخلتُ بالضبط، في عصر من "الليخطة" المتسامحة، والصفافة الماهرة، حين بدا، أننا جميعاً،

قد تحررنا أخيراً من أغلالنا لندخل في تنوير كان من العظمة بحيث لم تعد، ثمت، أي حاجة للإيمان.

ومن الكون كانت أخبراري تقول: "الآلهة لم تمت تماماً، ما دامت أسماؤها على شفاهاها كلها - دع عنك النصب المكرسة لها التي قدّمها يومياً زعيمنا المحبوب. لكن الآلهة أيضاً توقفت عن أن تكون جادة، ودخلت عصر اللعب. وقد هجرت الأماكن المقدسة وسكنت الخرافات التي لا تستلزم سوى انفصالنا المسلي عن الكفر. ولسوف تتضايق من أي شيء كئيب، أو فاقد الفكاهة، مثل تقوى أجدادنا. أخيراً، صرنا أحراراً في أن نؤمن بأنفسنا. وما دامت القواعد غير قائمة، فعلياً أن نوجدتها، حتى لو كانت غير سليمة!..". وهكذا دواليك.

كنت أكتشف لجيلي أسلوباً وطنياً جديداً. لا مزيد من الفضائل المدنية، ما دمنا نعرف جميعاً إلى أين تؤدي. لا وطنية بعد اليوم. لا تمجيد للرجال الذين يحملون السلاح. لا شعر تعليمياً بعد اليوم. لا جرعات ماشية، ولا حب الرعاية الصبيان ذا المذاق الإغريقي. كان عالمي شخصياً تماماً، دليلاً بصيغ جيدة واضحة، إلى شؤون البلاد، بحيث تمكن معرفة هذه الشؤون في المترين المربعين للفرش.

وقد خلق الإمبراطور عصره. وهو يدعى الأوغسطيني، كما أعلن مؤرخونا بالفعل، وقد ثبتوا عيونهم، بشدة، على الحاضر. إنه عصر وقور، منظم، متباه، كئيب. إنه قائم في قصائد المديح (التي رفضت الإسهام فيها)، وفي الرخام الذي سيخلد إلى الأبد.

أنا أيضاً خلقتُ عصرًا، مشتركاً مع عصره، وهو قائم في حيوات وحب محكوميه. إنه عصر مرحٌ، فوضوي، سريعٌ، وهو متعة. ولهذا السبب يكرهني الإمبراطور.

الإمبراطور أوغسطس سوف ينتصر في المدى القصير. والآن المدى القصير. فلقد أبعدتُ - هذا هو تعبيرنا اللطيف - إلى نهايات العالم المعروف، وطُردت من كنف لغتنا اللاتينية.

لكن، في ظل بوابة أهدتها أختي إلى زوجها المخلص، يُفعل بأحدهم الليلة، لأنني جعلت هذا يحدث في إحدى قصائدي، يحدث ذلك الفعل نفسه، في المكان نفسه، إشارةً إلى تحدي الجمهور. الآن، في كل ليلة، يفكر أوغسطس بالأمر، ويعضُ إبهامه. ثمت أماكن أقرب من البحر الأسود تتوقف عندها سلطة الإمبراطور. وبوابة كارسييلوس من هذه الأماكن.

لكني هنا، وكل هذا، كله، خُلقته ورائي بعيداً.

كم تبدو الآن، سخرיתי، حمقاء، وعقوقي، ورقصي على الحبل المشدود فوق الهاوية. لقد تشممتُ طريقي إلى الطرف الأقصى للأشياء، حيث لا شيء يبدأ. ذلك ما أوصلك إليه أنفك. أنا أتشمم، أتشمم، ولا أخبار من هناك، لا أخبار من هنا. إنني ميت. أنا مبعّد إلى إقليم الصمت.

كل ما أستطيعه أن أصرخ. وهذا ما أفعله.

أنا أمشي جيئةً وذهاباً، على خط الضفة الصخري تحت الجروف، التي يقسم ظلها الحصباء إلى أجزاء متميزة من النور والعتمة. أنا

أمشي بين الصيادين، صائحاً - أراقبهم يرفعون باندعاشاتهم المتألفة، من البحر، صيدهم الذي لا أعرف له إسماً. أو أتمشي في الشجرَاء على قمم الجروف، ألوح بذراعيّ ضد البرد وأراقب العواصف تندفع من لا مكان، أو شلالات عظمى من الشوك ترحل بيضاً على الريح، فأطلق صيحاتي.

الطريق إلى روما بعيد. وإن كانوا سيسمعونني، فعليّ أن أرفع صوتي، وأترك سيول الهواء الأسود هذه المتجهة غرباً عبر السهول، تحملني معها. لقد جعلوني أصمت. لكنني لن أهدأ.

كيف بمقدوري أن أقدم لك أي انطباعة - أنت الذي لا تعرف إلا المشاهد المشكّلة منذ قرون من أجل الفكرة التي تحملها أرواحنا جميعاً عن المنظر المثالي الذي يجب أن تتمّ عليه حياتنا - عما كانت عليه الأرض في عمائها الأول، قبل أن نأتي إليها بنظام الصناعة، والمصاطب الزراعية، والحقول، والبساتين، والمراعي، والصدائق المروية لعالم نصنعه على صورتنا؟

أتفكر بإيطاليا - أو أي أرض تسكنها الآن - باعتبارها هبة من الآلهة، جاهزة، بكل جمالها الرائق؟ إنها ليست كذلك. إنها مكان مبتكر. إن كان آلهة معك هناك، متوهجين من شجرة بمرعى ما، أو محرّكين روحهم على حصى جدول في نور الشمس، في الآبار، في الينابيع، في صخرة هي علامة حقّ امتلاكك سفح تل، إن كان الآلهة هناك، فلأنك أنت اكتشفتهم هناك، سحبتهم من داخل حاجتك الروحية إليهم، وحملت بهم في المشهد كي يتألق. إنهم معك بالتأكيد. عانق شجرة، وأحسّ بالروح تصبّ فيك،

وأستشعرُ دفء الصخرة يدخل في جسدك، إغمر نفسك في النبع كما لو أن في مكان سائل من جسدك تنام حياةً. لكن علينا أن نعرف بالأرواح كي تغدو حقيقة..

إنها ليست خارجنا، ولا حتى داخلنا تماماً. إنها تروح وتغدو بيننا وبين الأشياء التي صنعناها، والمشهد الذي شكّلناه، وتدخل. لقد حلمنا بكل هذه الأشياء في أعماق حياتنا، وهي ذواتنا. إنها ذاتنا التي نصنعها هناك، وحين يكتمل المشهد نكون نحن الآلهة المؤهلين للمثله.

لكأن أي مخلوق قادرٌ على أن يحلم بنفسه، خارجاً من وجود جديد، درجةً أعلى في سلم الأشياء. وبما أننا وعينا في نومنا، فكرة كينونة أخرى، فإن أجسادنا لتجد، ببطء، وألم، المسار الطبيعي الذي سيسمح لها بكسر اغلالها، والوثوب إلى تلك الكينونة. هكذا فالصخرة النائمة في الشمس، كانت يوماً ما ناراً ذائبة وصارت صخرة حين استطاعت النار أن تقول، بصورتها السائلة: "سأصلّب. سأكون صخرة"، والصخرة تحلم الآن بأن عروق المعدن داخلها قد تعود سائلةً، وتتحرك، لكن ضمن شكلها كصخرة، هكذا وببطء، وعبر قرون طويلة من التشوف لمثل هذا الظرف، للنعومة، للنض، تشعر أحد الأيام، بأن التحول بدأ يحدث، العروق ترتخي وتفيض، والصلصال يلين، وتكشف الصخرة عبر عصور طويلة من تخيل حياة أخرى، عيوناً، وفماً، وأرجلاً تثب بها، وإذا بالعلجوم. والعلجوم بدوره، يعي، وقد صار قادراً على السعي في الأرض، إمكان التحليق في الهواء، ويحلم بنفسه محلقاً، ذا جناحين، وهو لا يزال علجوماً.

أجسادنا ليست نهائية. نحن نتحرك، جميعاً، في بشريتنا المشتركة، وعبر الأشكال التي نحياها أكثر فيما بيننا، نحو ما لمسته أيدينا، ونحن نفعل الحب، وما توترت له أجسادنا في عتمة الآخر. ببطء، وعبر القرون، يتقدم كل واحد منّا، بقدر متناهي الصغر، نحو إنسان نهائي، كنا أعددنا المنظر لرضاه، إنسانٍ نهائي لا يمكن إلا أن يكون إلهاً.

لقد رأيت نهاية هذا كله، بوضوح، في مخيلتي: الأرض تتجلى، والآلهة يمشون عليها في ضوء أجسادهم. ولقد رأيت الأرض، كما رأيتهما أيها القاريء- مهياً لهذا منذ الآن، ما دامت عقولنا تعي، وأيدينا تصوغ، ما لم نتهياً بعدُ لدخوله: حقول ذرة بعلوّ قامة، منتصبّة السيقان تحت الشمس، متمائلة تحت القمر. غياض زيتون تتغير من الأخضر إلى الفضي، كأن إلهاً قال: "فضة"، ومَرَّتْ أنفاسه في المنظر لتحوّله مع التفاف الأوراق. أنت تعرف هذا كله. إنها الأرض كما صنعناها، نمهدّها، وننقيّها، ونزدرعها ناقلين البذور من مكان إلى آخر، غير متبعين خطّة معلنة، لكن تاركين لمعداتنا أن تهدينا السبيل ولجوع آخر أعمق، حتى يكشف لنا المنظر الذي صنعناه، المخلوقات التي نتشوف إليها، والتي يجب أن تكون.

أنا أعرف إلى أي مدى بعيد وصلنا، لأنني كنت عائداً إلى البدايات. لقد رأيت الأرض غير المغيرة. إنها منبسطة، بلا ملامح، مستنقع في الصيف، ومطاء متجمد في الشتاء، بلا شجرة، بلا زهرة، ولا حقل ممهد. الحبوب البرية فقط تنمو معاً في كتل مريضة، أو تتطاير متناثرة مع النسيم. إنها موضع الوحشة المطلقة. البداية.

أنا أعرفها كما أعرف ما بداخل رأسي. لن تستطيع أن تكون فكرة
عن المدى البعيد الذي بلغناه، وعن العودة البعيدة التي كنت فيها
كي أرى هذا كله. كم كانت حياتنا متخلفة في بداياتها.

ومع هذا، فإن اختلاجات حياة جديدة تتحرك حتى هنا. البذور
الأولى تُعزل وتنقى، وتأخذ طريقها الطويل إلى الكمال.

اليوم، كنت أتمشى، محتدياً نعلي العتيقين، مرتدياً قبائي، معتمراً
قبعة قش اتقاء الشمس، متعثراً، أكلّم نفسي في الخراب الموحد،
نحو النهر، ولقد تسمّرت قدمي لانتفاخة صغيرة من القرمز بين
الذرة البرية.

قرمز!

إنه أول لون أراه منذ شهور. أو هكذا يبدو. قرمز. كانت زهرة
خشخاش بري، ذات حمرة جد مفاجئة. بحيث جعلت دمي
يتوقف. ظلت أردد، لنفسي. الكلمة، مرّات ومرات، قرمز، كما لو
ان الكلمة، شأنها شأن اللون، قد أفلتت مني، وأن مجرد نطقي
بها سيحفظ الزهرة الصغيرة التي تهزها الريح، في مرآي. زهرة
خشخاش. سحر نطقي الكلمة جعل جلدي يقشعر، كأن القول
معجزة أعظم من البصر. سكرت بالفرح. رقصت. صرخت. تخيل
دهشة اصدقائي في روما وهم يرون شاعر العاصمة الهجاء،
الذي لا يكاد يعرف زهرة، أو شجرة، يرقص ويدور بنعلين
متقطعين على الأرض المفخورة المتشققة في مواضع، والغارقة في
الوحد المنثن في مواضع- أن يروه يرقص ويغني لنفسه، محتفلاً
بهذه الزهرة.

يا زهرة الخشخاش، يا زهرة الخشخاش القرمز، يا زهرة طفولتي البعيدة، وحقول الذرة حول مزرعتنا في "سالمو"، لقد أعدتُك ثانية إلى الوجود، وبعثتُك من دمي، لأجعلك تتمايلين مع الريح. قرمز. الكلمة السحرية على اللسان، لتبرق ثانية في العين. قرمز. ومعها تأتي الألوان كلها، عائدة، متدافعة، كالتعازيم، وتنفجر الأرض بها، وتتوامض حولي. إنني أصنع الربيع. مع صفرة زهرة المرغريتا الصغرى التي تشبه عين الثور، زهرة غياض زيتوننا ذات الحشائش، مع زرقة القنطريون العنبري، مع اللون البرتقالي لزهرة القطيفة، وأرجواني القمعية، حتى مع أزهار القرنفل وبخور مريم في حديقة أُمِّي التي نسيتهَا طوال هذه السنين كلها. إنها تعود... مع أن هناك في الواقع، زهرة خشخاش وحيدة، تويجات قليلة نسيجها رقة وألق، حول تاج من البذور.

من أين جاءت زهرة الخشخاش؟ لقد بحثت وبحثت لكنني لم أستطع أن أجد سواها. يجب أن تكون البذور قد دفعتهَا الريح داخل الأرض، فتجذرت. لكن، من أين؟ من البحر - محمولة في شلال من الغبار المضيء، كي تسقط بيننا؟ أو في أحشاء طائر في طريقه إلى الشمال، ونمت من ذرقه العابر وهو يمرق؟

أقتعد الأرض وألحظها. أنا أحب زهرة الخشخاش هذه. وسوف أحرسها.

بغته، امتلأ رأسي بزهور من كل نوع. تتفتق من الأرض في حقول عميقة، وتدور في جمجمتي. كان علي أن أسمى الأزهار، حسب،

بدون أن أعرف شكلها، لونها، عدد تويجاتها، حتى تنفجر براعم،
وتطقّ متفتحة، تنشر ضوعها في ذهني، وتفتح المقاطع السريّة
وأنا أضعها كالبدور على لساني، وأمنحها نفساً. سأقيم بساتين
كثيرة مثل هذا. أنا زهرة. أنا برسيفون. وعندي الآن الحيلة. الأمر
لا يحتاج إلا إلى الإيمان.

وبالإمكان أن يتحقق هذا، كما قدّرت، كالآتي: نحن نمنح الآلهة
أسماء فيسرعون إلينا، وهم يصعدون بمجدهم وقوّتهم وجلالهم
من الأذهان، يتقدمون ليعملوا في العالم الأبعد، يغيروننا
ويغيرونه. وهكذا، تستخرج منا الكائنات التي نحن في طور أن
نكونها. ليس علينا سوى أن نجد الاسم، وندع نوره
يفعمنا. مبتدئين، كما هو الأمر دائماً، بالبسيط.

يا زهرة الخشخاش، لقد أنقذتني، واستعدت الأرض لي. أنا
أعرف كيف أطلع ربيعاً.

إنه ليكاد يبدأ. كانت حياتي كلها، حتى الآن مضيعة.

عليّ أن أدخل في الصمت لأجد كلمة السرّ التي سوف تطلقني من
حياتي نفسها.

إلا أن الكلمات، قد كتبت. فعلاً. كتبتها منذ سنوات، والآن فقط
أكتشف ما عنته، وأي رسالة كانت لي، فيها: " سوف تُفصل عن
نفسك، لكنك ستكون حيّاً " .

الآن، عليّ أنا أيضاً، أن أتحوّل .

2

الوقت يكاد يكون مساءً. نحن نجلس، الشيخ، والطفل، وأمه، وأنا، في الدفء الأخير للشمس في الحوش، خلف حاجزنا الخشب.

عار هذا الحوش، إلا من مصاطب، ومسِنَّة دائرية يتدلى منها اليقطين المعلق بخيوط كي يجفّ في الشمس. ثمت الأحجار التي تطحن بها النسوة الحبوب، موضوعة في شكل دائرة. العجوز، والدة شيخ القرية، لا تنضم إلينا هنا، البتة. وبدلاً من هذا تظل تغمغم في الحجرة الخلفية، وبين حين وآخر تُدخل رأسها ذا الفك الأدرد، من المنفرج الضيق، وتخبرنا، كما أعتقد، كيف أن البرد شديد، محدّرة المرأة الشابة، فالطفل يجب أن يُلَفَّ جيداً، أو أن يأوي إلى الفراش. وأحياناً لا تفعل إلا الاستناد إلى مرفقها، والإنصات، وتجفلنا بضحكتها المفاجئة.

إنه الوقت الهاديء من اليوم، حين تكون الأشغال الأصعب انتهت، ساعة ما قبل النوم. غيوم كبيرة تتحرك سريعة فوق رؤوسنا، وثمرت ريح تهبّ من الشمال، من السهوب، نازلة على النهاية الباردة للنهر. الأوراق تتطاير، مدومةً عالياً فوق أعمدة السياج. لكن الجو دافئ في الشمس الأخيرة، حين لا يكون المرء في مهبّ الريح.

كنا تناولنا عشاءنا، هنا، خارج البيت: حساءً من نبات القراص، وجبن ماعز مطّيب بالأعشاب. أوعية الطعام، بجانبنا، على الأرض. المرأة الشابة تعود إلى العمل، تخطط شرائط من الجلد الخشن عباءة، قدماها الحافيتان منفرجتان قدّامها، والجلود على ركبتيها، وهي تعرق قليلاً—عند الحلق، وعلى خط شفتها العليا—،

وتتوقف بين فترة وأخرى لتبعد الشعر الرطب عن حاجبيها،
بظاھر یدھا.

التقطتني، أنظرُ إليها، فالتقت عيناها بعيني. إنها لم تعد تفرع
مني، أو تحار في، أو حتى تتسلى بي. فأنا مجرد شخص آخر من
أهل بيت عمّھا، حيث هي غريبة الآن مثلي، بعد أن مات زوجها.
إنھا تستمع إلى الشيخ، يحكي للولد حكاية بينما هو منشغل يعمل
في شبكة. أنا أيضاً أستمع. أنا العاطل الوحيد هنا، أدعُ الكلمات
الغريبة تملأ رأسي، بدون أن أفهم شيئاً منها، لكنني مأخوذ
بالرغم من ذلك، مأخوذ بسماع الشيخ يكتسب صوتاً آخر غير
صوته، عميقاً، وأجشّ، أكثر - عينا الطفل تنفتحان دهشة - أو
رفيعاً، نسوياً، يجعل الطفل يرفع كتفيه، ويقهقه، ويثير لدى
العجوز الجالسة خلفنا إحدى نعباتها.

حكاية الشيخ ملأى بالعجائب. تساءلتُ مع نفسي، أهي عن ذئب؟
عن دب؟ عن روح شيطاني؟ المرأة الشابة التي كانت سمعت هذا
كله من قبل، تراقب الطفل في توقّع، تضحك حين يضحك، وتلاقي
عيناها عيني كي أضحك، أنا أيضاً. وحين يثير صوت الشيخ -
ماذا؟ ساحراً، أحد الآلهة؟ - تتوقف أصابعها عن العمل لحظةً،
وتُظلم عيناها.

في مكان ما، عميق، بداخلي، أعرفُ هذه الحكاية. لقد سمعتها من
قبل. في طفولتي، من أحد عبيدنا. ربما. ولو في لغة أخرى. النغمُ
تعرفتُ عليه.

صوت الشيخ يتموج في الهواء، بينما كانت الدنيا تعتم من حولنا.

نحن ندخل في الشتاء، في الليل. يداه المربعتان الخشتان تشغلان دابّتين في الشبكة. إنه صانعٌ ماهرٌ. ولقد عرفت ذلك. فالمرء يرى مباشرةً، لمستّه الوثيقة. إنه منغمّرٌ عميقاً في حكايته، وفي معالجته الشبكة، إلى حدّ أنه لا ينتبه إلى حضورنا، إلا حين يضحك الطفل أو يلمس ركبته لحظةً، من الخوف.

أنا أدعوه شيخاً، مع أننا قد نكون متقاربين في السن، وأنا لم أبلغ الخمسين بعدُ. شظفُ حياته، وعَنَتُ هذا المكان، قد أرهقاه، ولوحّا بشرّته، وغضّنا وجهه، بحيث يبدو للعين الرومانية رجلاً في السبعين من عمره. إنه متين البنية، صلب العود، وهذا لم أتمتع به يوماً، ويتبدى لي الرجل برأسه الحليق وقذاله، ذا نُبلٍ قاسٍ.

أحاولُ أن أتصوّر حياته، موازيةً لحياتي عاماً بعد عام، لكن الصور تخذلني. فأنا لا أستطيع أن أدرك طفولته، أو شبابه، أو أخيل المرأة الميتة التي كانت زوجته، قبرها خارج القرية، حيث رأيته يتوقف مرة أو مرتين في عودته إلى البيت من المرفأ. يجب أن تكون حياته، مثل ما رأيتهما الآن، وعاماً بعد عام، العمل، النوم، العمل. ومع هذا تبدو لي حياته غامضة، فالأمر المنسيّ فيها، هو كرامته التي تجعلني أشعر بالحق والدُّوار.

كانت حياتي طائشة. فقد رُبِّيتُ لأومنَ بأعصابي، بالقلق، بالتنوع، بالتغيير، وتعلّمتُ من الكتب فقط، وكنت أعيش دائماً في حالة من الأمان الرخي، قادراً على تدليل نفسي، وعلى الانجراف في غيمة من المشاعر اللطيفة، ومع انطباعاتي المريحة عن ذكائي، واجتماعيتي، ولطفي، ومنبتي الطيب، وأن لا شيء يمكن أن

يحركني بدون أن أسميه، وأن لا أومن بشيء لست أراه، وكوني
 لم أجابه تحدياً لا يستطيع صبيّ نابه التعامل معه، وكوني
 تعلمت مبكراً (ربما مبكراً جداً) أن ألوي الأسئلة كلها، بمهارة
 وحذق - كيف لي أن أعرف القوى التي صنعت هذا الإنسان،
 مروّض الجياد هذا، الذي يأخذ من طبيعتها شيئاً في نفسه،
 ويهذهبه؟ إن في عينيه، وفي كلامه، وفي البطء القوي لتحركاته،
 شيئاً من السهوب المترامية التي جاءت منها تلك الجياد، وجاء
 منها مروّضو الجياد هؤلاء، الذين لا يُدفنون حين يموتون، مثل
 الرجال الآخرين، لكنهم يُتركون ليمتطوا الأرض في كتائب هواء.
 غداً، سأذهب مع الشيخ، في فريق صيد، إلى غابات البتولا، حيث
 الغزلان.

حين نجتمع في الحوش الصغير يكون مكسواً بالصقيع، وثمت
 نجوم، صلبة، ناتئة، خفيفة فوق رؤوسنا.

نأكل سويةً على المصطبة: صحن لبن خاثر مخفف بالماء،
 مسخن في قدر، ومحلى بعسل غامق الطعم. النحل برّي يغتذي
 أعشاباً في عمق الدغل، وللعسل مرارة تلك النباتات الغامضة، مما
 يمنح اللبن الخاثر ضوعاً يملأ المنخرين قبل أن يبلغ الطاعم
 مذاقه الحلو. وعليك أن تعتاد. لكنني جائعٌ أخذُ صحناً آخر مع
 سواي.

لم نكد نفرغ من مأكلا، حتى وصل الآخرون، مرتدين طماقات
 جلد ذات سيور، وقمصاناً مطرزة مفتوحة على الصدور، حاملين

قسياً. هم ثلاثة شبان يبدون قساةً بسوالفهم السود وشعرهم الطويل، وشيخ أشيب ضئيل، هو شامان القرية. وخلفهم في هرج صاحب ستة أطفال حفاة.

شيخي يحييهم، ممسكاً بيدي كل واحد منهم، بالتتابع، ويعانق الشامان الذي يردد عبارات مباركة، ليس فقط للشيخ، وإنما لكل من المرأتين، وللولد، والمصاطب، وعضادات الأبواب، وحتى لي.

نلتئم في حلقة، ونصمت. الطفل يتركنا إلى حيث القدر منصوب دافئاً في الحوش، فتغرف أمه في يديه قليلاً من اللبن الخائر الذي كنا نأكله. يعود الطفل بخثارته ليدخل في الحلقة، ويخيم سكون بينما تتجمع شياطين الدار، زاحفةً من تحت الجمر، من أوعيتنا الفارغة على المصطبة، من شقوق الحيطان وزواياها. يبدو الولد عصيباً وهو مركز هذا كله. عيناه تدوران في الساحة، من النار إلى المصطبة، باحثاً عن المخلوقات التي تُركز اهتمامها الآن عليه، وعلى كفيه المكورتين اللتين تضمّان خليط كل حبوب الحقل وأعشابها، عارفاً أنه في فترة الاحتفال القصيرة، لم يعد هو نفسه - صغير أهل البيت، القصير السمين، ذا السنوات السبع، المدلل أكثر من اللازم، والمشؤوم - بل هو مُسَيَّر قوَى الظلام، وتجسيد البيت ذاته، يتنفس ثقيلًا في الصمت، ويرتجف، ماداً يديه بثمار الأرض الشحيحة كي تذوقها أفواه خفية.

يبدأ الشامان يغني، وينضمّ إلى غنائه الآخرون. الولد يتصلّب ويختضّ. وحين ينسكب من بين كفيه قليل من العصيد، وبعد لحظة شك، يخفض رأسه ليلعقه، آنذاك يقرص الشيخ الولد

قرصة خفيفة من أذنه، بدون أن يتوقف عن الغناء. العصيد ينسكب، وأشار أحد الشبان إلى الولد بأنه غير ملوم، ثم سوى بجزمته التراب على العصيد المنسكب. يتوقف الغناء. ونقف صامتين. عينا الطفل تطرفان قلقاً، وأراهما تتحولان بسرعة إلى أمه التي توميء له برأسها، ثم إلى جده الذي يربت على رأسه بلطف، الولد يستدير متيبساً، ونحن نراقبه بدقة الآن، وهو يمد أمامه يديه المكورتين، ويعود بطيئاً إلى القدر، ويسكب بقية الخثارة على النار. النار تهسهس. ومع هسهستها تنفرط الحلقة. الجميع يضحكون، ويشرعون يتكلمون في وقت واحد، وتمتلئ الساحة بالنشاط، بينما يبتعد الرجال ليأخذوا قسيهم، والنسوة يغسلن يدي الولد بقماشة، والشيخان يمزحان ويصفع أحدهما كتفي الثاني. يبدو أن كل العلامات مواتية، تبشر بالخير. بإمكاننا الذهاب.

الخیل - قصيرة، متينة، ذات سروج خشب مكسوة بالقماش - أحضرت الآن إلى مدخل السياج، ونحن نمتطيها. الشيخ، الذي يبدو خجلاً، لي، أمام جيرانه، يُريني كيف أركب الحصان بلا ركاب، ضاغطاً خاصرتي الحصان بركبتي، أما الشبان، فكانوا يشغلون أنفسهم بسيور سروجهم، تأدباً. يصفر أحدهم، وهو ينظر بعيداً، عبر بطائح النهر، إلى الشمس التي ليست سوى مسحة من ضوء شاحب على الأفق الشرقي، ينصب، ويتقد في الضباب. نخرج، راكبين، من القرية. الأرض نحو المناقع بيضاء من الصقيع، وحوافر خيلنا تترك أثاراً كبيرة سرعان ما تنكسر وتنتشر، كأن فرساناً هائلين، كالذين أراهم في حلمي، يتبعوننا

بدون أن نراهم، وهم يضعون الحافر على الحافر بصورة دقيقة. الضباب يدوم من البطائح، حول صدور خيلنا ورُكَبنا. كأننا نخرق الغيوم. لكن في الأعالي ضوءاً أصفر تقطعه مِرْقُ غيم، والطيور تغرد.

بعد نصف ساعة، والشمس عالية فوق الأجمة، كرة حمراء وحيدة، كان الهواء لا يزال كالغيم، يشفّ في المرتفعات، ويكثف كنثير الموج حين نكون في المنخفضات.

نحن نتحرك بطيئين، الخيل تشق طريقها خلال المستنقع ذي الحشائش المتطاولة وتتنفس مجهدةً ونحن نرتقي التل. كل الأرض التي تعلق بطائح النهر غير ممهدة، وعلينا أن نلازم تلك الأرض لأن المناقع لا تزال مغمورة بمطار الصيف.

أخيراً شرع الضباب ينقشع. لقد صرنا في أرض قليلة الشجر، ينبت فيها عشبٌ مبيضٌ ذو رؤوس كالرماح، تضيء ذهبيةً وبُنيةً في الشمس الطالعة. الأرانب تفرّ منا إلى الدغل، والرجال يضحكون ويتصايحون وهم يرون الذبول البيض الصغيرة تبتعد. نحن الآن نصعد نحو هضبة شجّراء وراء بروز من صخور متكسرة قد يحسبها القادم من عالم آخر، تحصينات قديمة. نحن نصعد صعوداً حاداً بين الجدران الغرانيتية المنتصبة، وأسمع في أول الرتل، أول حصان يخبّ في ما يجب أن يكون منفسحاً. وحين أعتلي آخر نهدة معشوشبة، والحصان يكاد يزلق تحتي، أرى.

إنها دائرة طبيعية ضخمة. توقف أولُ الفرسان على مبعدة ثلاثين

ياردة منها، وأسرع الآخرون ليكونوا إلى جانبه. ثم ينطلقون، معاً، في رتل، داخل ستار من أشجار الصنوبر التي كادت الريح الهابّة تعريها، وأنا متخلفٌ عنهم قليلاً، فلقد عرفت أننا في صعودنا إلى هذا المكان قمنا بتحويلة، وهذا يعني أن ثمت طقساً سيقام، ليس لي دورٌ فيه. دخلنا في ستار الصنوبر، على بساط من الأشواك الناعمة التي أثارت حوافر الخيل عطرها.

عندما بدأت غابة الصنوبر تفقد كثافتها، بان ما وراءها. للوهلة الأولى لم أستطع أن أتبين ما هو. ثم أدركت من الحكايات التي سمعتها أنه الدائرة العظمى لركام الجنائز، ربما كانت مائة كومة، كلها من الحجر المكسور، وكثير منها لا يزال يعتليه الهيكل العظمي للحصان، وراكبه، مخوزقاً على وتد، وهي الطريقة اللاتقة لدفن فارس. أنا أتبع الراكبين حول الدائرة العظمى. طيورٌ كبيرة تخفق أجنحتها مبتعدة وتحلق في دائرة فوقنا. الريح تهز الأوتاد، فتقرقع في مغارزها، فاستعدت جيش الأشباح الذي رأيته في حلمي.

نحن ندور راكبين، حول الدائرة، مرةً، مرتين، ثلاثاً، ثم نتوقف. الشيخ يخرج من كتفه محفظة ملأى بالحبّ، وبغثة يقود الفريق كله في سباق وحشي بين الموتى، جيئةً وذهاباً، بين الأوتاد المقعقة وهيكلها العظمية، ملقياً حفناً من الحبّ في أفواه الموتى، وصارخاً كي يبعد الأرواح الشريرة والطيور. وألحظ للمرة الأولى أن حولي في نور الشمس سيقاناً هزيلة من الشعير، والشوفان البري، وحتى القمح. نحن في وسط حقل كبير.

تصمت صيحات الرجال، ويركب الشيخ إلى جانبي، مبتسماً، ويقدم لي قبضة بذور. أخذها مرتبكاً، وأخفق للوهلة الأولى في معرفة مقصده. بابتسامة تكشف كل أسنانه الرديئة، يرمي رأسه إلى الوراء، ويطلق صرخة تخنر الدم. ثم يوميء برأسه ويبدو كأنه يتوقع شيئاً.

وبوعيّ ذاتيّ مني، أعيد الصوت. يبتسم ثانية، ويصْفق كتفي، وهو لا يزال يبتسم. أدور في الدائرة المتألّفة، مقدّماً تقليدي الخافت لصيحة موت الفارس، وناثراً حفنتي من الحبوب.

والغريب حقاً، أنني أشعر بلحظة انتعاش، وأنا أروح وأغدو بين الأشكال المنتصبة، مما ذكرني بشيء - شيء يعجز ذهني عن الإمساك به، كأن هذا كله قد حدث من قبل. أنا أصبح ثانية، أعلى، وأدور في الحقل دورة ضيقة، كما رأيت الآخرين يفعلون، تاركاً الهواء البارد يملأ رئتيّ، ثم أطلق صيحةً مديدة، وأشعر أنني تحررت من شيء. كأن خوفاً ما خرج مع أنفاسي وجعل روحي حرة. وأقول لنفسي أنا روماني، أخبُ عائداً إلى حيث يجلس الآخرون، مبتسماً ابتسامة عريضة. أنا شاعر روماني. لكن ذلك النَفَس، والصوت الذي يحمله لا يزال يخرج من جسمي إلى العالم، وأشعر بأنني أكثر حرية، لهذا السبب يحييني الشيخ بأن يمسك يدي. يقول كلمات لا أفهمها، وبينما نحن نركب، عائدين، ينتحي أحد الشبان بحصّانه جانباً، كي أتمكن من أن أتقدم الصفّ بعد الشيخ مباشرة، بينما بقية الفريق تتبعنا.

وأنا على ظهر جوادي، في نور الشمس، أجدني أفكر، ربما للمرة

الأولى في ثلاثين عاماً، بشقيقي الذي مات حين كنت شاباً، والذي احتلت مكانه باعتباري وارث أبي.

قبل ثلاثين عاماً، وأنا على ظهر جوادي، مثل الآن، بعد جنازته. وأبي إلى جانبي، تقدمتُ فجأةً، وجعلت بيني وبين أبي جواداً. إنه غاضبٌ مني، وأنا منزعج، متضائل، لأنني أعرفُ ما يفكر فيه: فمناً، نحن الإثنين، كان أخي هو الذي ينبغي أن يظل حياً. فأنا شخصٌ لعبوب، لا يصلح لشيء في العالم. أخي هو الذي كان سيحافظ على آخر قطعة من أراضينا ويتسلم منصباً عاماً رفيعاً، ويفعل كل ما هو متوقع من ابن طيب أن يفعله بخصوص تقوى آلهة عائلته. أعرفُ أن هذا حقيقة، وأحسُ بحياتي، وثقل جسدي كله على السرج، عبثاً. كنت سأفعل أي شيء، كي أرقد في القبر الحجري، وكي يكون هو على ظهر جواده، في نور الشمس، وأبي إلى جانبه. لكن الكبرياء جعلتني عنيداً.

والذنب. كنت لتوِّي أخبرتُ أبي بأنني سأغادر، ولن أعود. ولقد بدأت بالفعل مغادرتي، مبتعداً عنه على الممر الضيق من الغيضة، وجاعلاً بيني وبينه مسافة حسان كاملة. أنا الآن في طريقي إلى روما. أنا في طريقي، وإن كنت لم أعرف هذا بعد، إلى المنفى، منطلقاً إلى هذا اليوم، بعد ثلاثين عاماً، حين سأكون شيخاً، أركب مع البرابرة في نهاية العالم، خارج القانون الروماني الذي آمن به أبي إيماناً حاراً، وخارج الدولة الرومانية التي كرّسنا لها، حيث لا أحد يعرف اللغة الرومانية على مسافة تسعة أيام من الركوب. من كان يحذر ذلك الصباح، بأننا سنركب، مبتعدين عن بعضنا، إلى هذا الحد - وأن لعنته عليّ، التي قد لا يكون نطقُ بها، بل ربما

لم يسمح لها بأن تخترق سطح ذهنه، قد طوّحتُ بي إلى هذا
البُعد، وظلت طيلة هذه السنين مثل تيارٍ باردٍ على ظهري، حتى في
نور الشمس.

الآن، بغتة، صار نور الشمس على ظهري دافئاً. ففي مكان ما، في
كل تلك الصيحات البربرية على الهضبة، جعلتهما يعودان إلى
حياتي، الأخ الميت قبل ثلاثين عاماً، والأب الدفين عاماً واحداً فقط
قبل طردي. لقد كنتُ أصبح من أجلهما. والطقوس التي لم أكد
أؤديها خلال جنازة أبي - ابنٌ روماني، يضحي، ويرش بضع
قطرات باردة من أجل أب روماني - هذه الطقوس عادت حية،
فجأة، في تلك الصيحة، فانتهيتُ من الموتى. حرّاً، أخيراً، لأهيمياء
موتاً خاصاً بي.

منتصف النهار تقريباً، ندخل غابة البتولا، حيث مُطردُ الصيد.
الأشجار، منذ الآن، عارية في معظم أجزاءها، جذوعها الفضة
محزوزة بالأسود، آخر الأوراق الذهب عُلقتُ بعضاً مكنسة من
الفروع، والأرضُ تحت حوافر خيولنا تتنّ وتتنخل بالمسّاقط من
الأوراق النفيضة. الشمس مبتلة، والسماء شاحبة والنهار بلا
رياح. ساكنٌ بصورةٍ غير طبيعية.

أحد الشبان يترجل، ويأخذ بعنان حصانه، ينحني متفحصاً
الأرض، مقتفياً الأثر. ترجلنا جميعاً، نمشي خلفه، ليقودنا إلى
وجار ذئب. كانت الذئبة واقفة عند المدخل، مكشرة عن أنيابها، أما
جَراؤها، وقد دوهموا في العراء، فقد كفوا عن التمرغ،
والمداعبة.... مخلوقات ناعمة كلها فرو، عندما جئنا تراجعوا، على

أربع، محتمين خلفها، ناظرين إلينا. نمضي في سبيلنا، لنعثر فيما بعد، على أثر دُبٍّ، ثم على أثر غزلان.

ومن المدهش أن يكون بين هذه الآثار مواطني قدم بشرية، مع أن الآخرين لم يبدُ عليهم الاستغراب. كانت مواطني القدم البشرية، عارية، صغيرة، قد تكون لطفل. أو ما الشيخ، بوقار، وشرح الأمر بالإشارات. إنه طفلٌ، ولدٌ في العاشرة أو نحوها، ولدٌ متوحش، يعيش مع الغزلان. كانوا وجدوا الآثار قبل موسمين. والعام الماضي رأى أحد الصيادين، الولد، لكنه لم يستطع الاقتراب منه.

الهباج يتأكلني. عندي ألف سؤال لهم لكنني عاجز عن قول شيء.

من أين أصل الولد؟ من هما والداه؟ كيف وصل هنا؟ كيف كان بمقدوره أن يظل على قيد الحياة، عارياً في الفصول كلها، ولا أحد يطعمه ويرعاه؟ كنت سمعت، من قبل، بأحداث كهذه. هناك قصص في كل مكان، عن أطفال متوحشين، لكنك حين تدقق في الأمر لن تجد من رأى طفلاً متوحشاً رأي العين. كما أن لدينا التوأمين الرومانيين، الأخوين الذئبين، أبوي دولتنا. أتساءل إن كان أحدٌ يصدق وقائع أسطورتها، ما عدا قلة من الفلاحين البسطاء؟ لكن مواطني الطفل حقيقية. حقيقة تماماً مثل آثار الغزلان بجانبها. لمست موطئاً منها بأناملي، محاولاً أن أتحمس، باللمس، المخلوق الذي خُلفَ الأثر. بادئاً ببعض الدفء الذي أتخيلُ أنني أحسُّه، أستحضرُهُ، وأستدعيه. لكن هذا غير معقول. يجب أن تكون القدم مسّت الأرض في خطفة ثانية، حسب. كان الطفل يركض، واثباً على الأوراق. أنت تعرف من عمق الأثر،

والمسافة بين موطني وآخر، أن الطفل كان يركض مع الغزلان، وأنه كان يضاهيها في خفته وسرعته.

ألمس أثراً ثانياً منها. تبدو كالمعجزة. وبغته، كأن مخيلتي قد استدعته حقاً، أرى الطفل، والأغرب في الأمر، أنني عرفته. أنا، أولاً، أرى هيأته، بين شجرتي بتولا على مبعدة خمسين ياردة تقريباً، مقعياً مثل حيوان، ناظراً إلينا، ولدأ نحيلاً مثل عصا، ناتئ الأضلاع من البشرة الملّوحة، بارز عظمي الكوعين والركبتين، منسدل الشعر الأسود على الكتفين. وثب لسماع صيحتي، وابتعد داخل الغابة.

أرايته حقاً؟ أم أنني رأيت، فجأة، بعد كل هذه السنين، الطفل الذي طالما كان رفيقي السري في "سالمو"، والذي نسيت حتى وجوده نفسه. فجأة، كان ثانية، أمامي. هل كانت الرؤية حقيقية؟ أنا شكّك. لكن الرجال يصدقون.

إنهم يمتطون جيادهم، بسرعة، وينطلقون إلى حيث أشرت بيدي، حوافر جيادهم تثير كتلاً ونثيراً من الأوراق، وفي الوقت نفسه اندفعت ستة غزلان كانت ترعى، اندفعت مذعورة، رشيقة العدو، نحوي، عبر المنفسح، وأنا أصيح وأسقط.

كانت لدى الرجال حين عادوا، قصة لم يستطيعوا أن يفهمونها. هل رأوا الولد حقاً؟ إنه، بالتأكيد، غير قادر على أن يسابقهم. ربما غار في الأرض، في وجار ذئب، أو عميقاً في ملتفة أوراق، أو تحت جذور شجرة ما.

نحن على خيولنا، نتقدم بطيئين بين الأشجار، نشق سبيلنا متلوياً بين الجذوع المفضضة، كأننا في حلم. ونتنادى لنحدد مواقعنا، ونفتح عيوناً واسعة لكل حركة، مرهقي الأذان لأي صوت.

مجموعات الغزلان تجفل منا. وأحد الشبان يصيب غزالاً، ويعلقه متدلياً على كتفه ليكون عشاءنا. قضينا، العصر كله، ندور حول مئات اليردات القليلة من الغابة، كأننا في حلم، حتى شرع ضباب السماء يتجمع، والضوء يخبو. ماذا ترانا فاعلين لو رأينا الطفل؟ تساءلتُ مع نفسي. هل نطارده ونقبض عليه؟ وماذا بعد؟ ومن يكون؟ صار النهار أزرق، والظلال تتجمع حولنا، والشيخ يقرر أن نخيم.

نربط الجياد، ويعين الشيخ مهمة لكل واحد منا. مهمتي أن أجمع أطرافاً للنار. أحد الشبان ظل في مكانه، كي يسلم الغزال ويقطعه، وقد أدى مهمته، سريعاً، نظيفاً، معلّقاً الجلد كله على غصن، ومقطعاً اللحم قطعاً للشواء. ترك الأحشاء جانباً، مع وعاء مليء بالدم الأول للذبيحة.

أنا أطوف، متمتماً مع نفسي، وجامعاً حزمتي من الأطراف، ثم أجلس حاضناً ركبتي، مفكراً به: الطفل.

أين هو؟ ألا يزال يراقبنا من مكانه؟ أتذكر الآن، بوضوح، عيني، مثبتتين عليّ، عبر المنفسح بين الأشجار. تلك النظرة كانت شيئاً لم أستطع أن أتخيله. لم أر من قبل، مثلهما، إلا عيني طفلي، في السنين السوالف. أنا لم أبتدع في قصائدي أمراً مثله، قصائدي التي كانت ملأى بمخلوقات غريبة، اقتنصت بين الإنسان

ومخلوق أعلى أو أدنى، في لحظة من التحول المؤلم. إنه ليتجاوز خيالي، ذلك الوجه الصغير الحاد، بنظرته السوداء، وأفكرُ بشعري، كم كان يائساً، بخرافاته الأنيقة، ومعجزاته الجميلة، اليسيرة شرحاً، مقارنةً بالحقيقة العارضة لهذا المخلوق الذي ينبغي أن يوجد (إن وُجد) لا ليتميز، بل، بكل بساطة، لأنه، وبكيفية ما، وقع في الكينونة. أحضنُ ركبتي، وأتحدثُ إلى نفسي بلغتي، بحيث أثرتُ الذعر في الصياد الشاب، الملطخ بالدم، ذي الوجه السمح، والسيماء البريئة، حتى ابتعد عني. وإذا عاد الآخرون، رأيته يكلم الشيخ الذي نظر إليّ، خجلاً، عبر ذراعه، وكان عليّ أن أعيد نفسي إلى المجتمع - إن صحتُ تسميته هكذا، فليس بيني وبين هؤلاء الناس، إلا المشابهة البشرية المشتركة، لا التجربة، ولا العوائد، ولا اللغة.

أراقبُ الشامان ينثر رموزه على العشب السبط. إبرة من عظم السمك، قطعة من طين النهر في شكل كرة غير منتظمة، حفنة حبوب.، وضع هذه الأشياء في دائرة رُسمت حوله بالعظم، وأنا أنصتُ إليه، وهو يبدأ الترنح، أماماً، ووراء، مقتعداً الأرض، مُطلقاً صوتاً نسوياً عالياً، مثل الصوت الذي يستعمله الشيخ في حكاياته، إلا أنه أعلى، وأكثر لا أرضيةً، وهو يطلقه في عواءات وصرخات أو في صفرات مديدة بطيئة، تتماوج فوق الأرض. وأخيراً، حين يهمد، ويبدو نائماً، تنفتح يده أمامه، ويأتي الشاب الذي أصاب الغزال، وذبحه، إلى طرف الدائرة، حاملاً وعاء الدم. يصبغ بقليل منه جبهة الشامان، مستعملاً سبابته، ويلمس الشفتين المغضنتين، ثم يسكب بضع قطرات في يدي الشامان. أما

ما تبقى فيسحبه إلى هامش الدائرة، ونحن نجلس خارجها في العتمة المتزايدة، حتى يبدأ الشامان يتكلم بمقاطع قليلة يظل يردد لها بصوته الخاص مع عواءات قصيرة، للأصوات الأخرى، بينها. فجأة، يستيقظ، وينتهي كل شيء. لقد كان، بينما نحن نراقبه، في رحلة حلم إلى الأصقاع القطبية القصية. كانت روحه هناك، تتحرك أسرع على السهوب المتجمدة عبر النهر، في المتاهات العسيرة، والصوت الذي سمعناه منه كان صوت الأرواح القطبية. والآن، بغتة، يعود واحداً منا، شيخاً عادياً تماماً، جائعاً، ومتيسر المفاصل قليلاً، يمشي على ساقيه الملفوفتين ليساعدنا في إيقاد النار، وفي ربط أغصان البتولا مع بعضها لتكون مأوى مخروطياً عالياً.

تساءلتُ: هل يراقب الولدُ هذا كله؟ وماذا يفهم منه؟ من أي نوع مخلوقاتٍ يظننا؟ هل يعرف هو، نوعه؟

أنا أفكر بهذا، طيلة مضغي قطع لحم الغزال المشوية الثخينة، ومصي أصابعي نظيفة، وفيما بعد، بينما كان الرجال يغنون - صوت غريب يتردد في الغابات الخاوية. أيسمعه؟ أي مخلوقات يظنها تُصدر مثل هذا الضجيج؟ هل اكتشف أنه يستطيع أيضاً أن يخرج أصواتاً بتنفسه؟ هل اكتشف بدايات النطق؟ أيتكلم مع نفسه، ما دام ليس معه مخلوقٌ يشاركه ذهنه ولغته؟ مثلي في هذا الأمر.

أنام متفكراً، وأستيقظُ نصفَ نائم لأرى نفسي وحيداً، والنجوم فقط فوق رأسي، ثم أروح في نوم أعمق،

وأحلم، أو أستيقظ من جديد، لست أدري.

لكني أعي، على أي حال، أن حيواناً ما خرج من الظلام، وهو ينظر إليّ. أذنب هو؟ أهذا الذي أحسُّه خطمٌ ذئب، أنفاسٌ ذئب؟ غزال؟ أم أنه الطفل؟ فكما في الحلم المبكر ذاك، أنا وأواجه شيئاً ليس نفسي، ولا من خيالي، شيئاً ينتسب إلى نظام كينونة آخر، وأنني جئت من أعماق نفسي لألقاه كما لو على سطح مرآة. أهو الطفل في؟ أي طفل؟ من أين جاء؟ من هو؟

أستيقظ. لا أحد. عند الطرف الآخر من النار، أحد الشبان، ينقلب، ملتقاً بالجلد، في نومه ويتمم بصورة غير مفهومة، مقاطع ثقيلة، غريبة - لست أعرف إن كانت هذه المقاطع بلغته، أم باللغة التي يرددها النائمون. لا بد أن أحداً غطّاني اتقاء البرد. أتمدّد لحظةً ناظراً إلى النجوم التي تبدو مُسَفَّة. وتذوب النجوم فيّ، تتغلغلني. وعندما أستيقظُ ثانية، أرى الفجر.

جاء الشتاء ومضى. نحن الآن في عمق الربيع. الأيام ندية زرقاء، والرياح تهب رُخاءً، لكن لا برعم نرى. الشجر الخفيضة خضراء رمادية وليست سوداء، والبحر ينبض ويتأجج. لكن لا حداثق لتتفتح براعم، لا بنفسج، لا أشجارَ ظل لتعرض أفنانها الشاحبة، لا جداول لتبعث خريرها وتمّوجها في نور الشمس.

كان الشتاء رهيباً، يعجز المرء عن وصفه. لسبعة شهور ظلت الرياح تهب عاويةً عبر آلاف الأميال من السهوب المفتوحة، وهي تسوّي الدغل، وتسوط البحر زبداً أسود، حتى يتجمد المحيط كله

أخيراً، ليصبح بمقدورك أن تمشي عليه من الشاطيء ، لترى الأسماك بلا حراك، في الأسفل. والبرك الآسنة التي تستقي منها النسوة الماء، تجمد، فيذهب الرجال في هذه الحالة ليقطعوا كتلاً ويحملوها إلى البيوت لتذوب على اللهب. من المستحيل أن تخاطر في عاصفة الزمهرير، فتخرج، بلا قبعة ذات حواش، ولقاف من الفرو، وقباء، وجزمة، وطماق - لكن، حتى مع هذه، كلها، تتجمد الأنفاس، وتُشكل اللحية مُدَلِّيات تلج وتخز وترن. وكلامُ المرء يمكن أن يُقطع بطريقة ماء شربنا، ويذاب فيما بعد، في دفء البيت، إن تجرأ أحدٌ على فتح فمه في الخارج، ليذكر الوقت فقط. نحن نتحرك كما في الحلم، كأن دماغنا استحال بلورات صغيرة حادة. وكأننا، شأن الدببة والمخلوقات المماثلة، قد زحفنا عميقاً في كهف ما داخل أنفسنا ومننا، نتحرك فقط كأشكال حلمية، متيبسين، فاقدين البصر، ندخل في حياة الآخر ونخرج.

ذهني يذهب، باستمرار، إلى غابة الغزلان والطفل. كيف بإمكانه البقاء على الثلج بين أشجار البتولا، يمضغ أشنّة، ويحفّر في الجليد بحثاً عن فطر. أيمكن أن يظل حياً في هذا الفصل؟ أترى الرجال مهتدين إلى آثاره في العام المقبل؟ أنا أتحرق إلى أن يخفف الجو من غلوائه، حتى يكون بمقدوري أن أحثّ الشيخ، ريزاك، على تشكيل فريق، والبحث عنه. إنه سرّي. وسأبوح به في الوقت. إنه الذي يُيقيني حياً في هذا كله. أنا أدفنه بأنفاسي. أم أنها أنفاس حيوان ما تلك التي تدفنه، أنفاس ذئب أو غزال، حتى لو كان ذلك في أحلامي؟ أم تراه يسبت في الشتاء، مطوياً في غار ما، مربوطاً إلى استمرارية الأشياء بأنفاسه البطيئة فقط؟ إن

كان الأمر هكذا، فكيف يطعم؟ وبم يحلم؟ أترأه يحلم؟

إنه ولد طفولتي المتوحش. أعرفُ الأمر الآن. الولد الذي عاد إليّ.
إنه الطفل.

حدثان أعطيا هذه الشهور البيض، شكلاً. أحدهما، الأنباء الأولى في قريتنا، التي نودي بها من طريق إلى طريق، وأُعلنتُ ضرباً على صنوج خشب، عن أن الداسيين قد استولوا على بلدتين في الشمال وأحرقوهما، وأنهم يندفعون إلينا عبر النهر. الحدث الثاني الذي تلا الأول، مباشرة، هو هجومهم علينا.

النهر، قبل وقت طويل من نهاية العام، بدأ يتجمد. هذا النهر الذي يبلغ عرضه خمسة آلاف خطوة أمسى جسراً من الجليد الصلب، ومئات الفرسان الداسيين تدفقوا من السهل الشمالي، وهم يندفعون، مرعدين، عبره. علينا أن نحرس أسوار قريتنا منهم، وقد استدعيت أنا أيضاً لأكون في إحدى المجموعات، بعد أن أُعطيْتُ رمحاً وخوذة - أنا الذي عشت خمسين عاماً في إمبراطورية سلام مع نفسها، ولم أتدرب يوماً واحداً - وأُرسلتُ لأقف وراء الحاجز الدفاعي في الهواء الليلي البارد، مثقلاً بجبل من الفراء، فلا يمكن التعرف عليّ.

كنت مأخوذاً بسخرية القدر هذه. باعتباري مواطناً رومانياً من صنف الفرسان، وسليل شجرة محاربين، مكلفاً بحماية القانون الروماني، وزهرة الحضارة الرومانية، كنت أسخر من أفكار عتيقة مثل الواجب، الوطنية، والفضائل العسكرية. أما هنا، وأنا

في الخمسين، فإنني أقف مستعداً في الطرف القصي من العالم المعروف. لأحمي ماذا؟ مائة أو نحوها من أكواخ الوتل والطين، ثلثمائة غريب متوحش لا يتكلمون حتى بلغتي. وبالطبع، جلدي أنا.

ولقد حدث الهجوم. وليلة مجيء المغيرين كنت في الفراش، وكان على إحدى النسوة أن تهزني لتوقظني من النوم. ولقد سمعتُ ليلتها أيضاً. رعدَ حوافر الخيل على الجليد، والصنوج الخشب تُقرع، والأصوات في الظلام.

أشكال شبحية آتية من الشمال، آتية من حلمي، تعدو في قوس واسع من ضوء القمر، كان ماءً قبل أسابيع قليلة فقط. خرجت متعثراً. السهام أمطرت من السماء، وسقطت على السقوف، وأصابت مخلوقاً بائساً كان يحرس في زاوية الحاجز الدفاعي، وقد سقط وهو يتلوى. السهام مفلّقة بالسّم. الجرح يتقيح ويتعفن، ولثلاثة أيام ظل الرجل المصاب في حالة هذيان، يتحسس طريقه ببطء إلى المعاشب وراء النهر، حيث تستقبله الأرض. طوال الليل، كانوا يدورون ويدورون حول الحاجز الدفاعي، يزمجرون ويعوون كالذئاب، والسهام تتساقط. غادروا في الصباح، وكان الدغل كله، إلى الجنوب الغربي يشتعل. سحبٌ كثيفة من الدخان ارتدت، فوقنا، سوداً، مريرة برائحة الأشواك. لقد مروا، متجهين، إلى مستوطنات الجانب التراقي. والآن ربيع.

كنت تكلمت مع الشيخ عن فريق بحثٍ (لدي الآن من لغتهم ما

يكفي لحاجاتي الملحة المعروفة) لكنه يبدو غير راغب في أن يلزم نفسه. أهو خائف ؟ أثمت معتقداً خرافتي حول الطفل؟ أكانت أغنية الشامان في غشيته، التي اعتبرتها نوعاً من مباركة صيد الغزلان، أكانت في حقيقتها شعيرة للطفل؟ من أين يعتقد هؤلاء الناس أن الطفل جاء؟ من الآلهة؟ أيعتقدون بأنه منهم؟ أهو كذلك؟ أم أنه قد يكون أتى من المعاشب في الشمال، وأنه ضاع هنا في إحدى الغارات؟

لم أكن أخبرت الشيخ بأنني أعرف الطفل، وأنني اعتدت أن أكلمه أن كنت ولداً في " سالو " . كما لم أعترف له بأنني أريد الإمساك بالولد والإتيان به، بيننا. أريد فقط أن أتأكد من أنه ظل حياً لفصل آخر، وهذا ما يراه الشيخ، باعتبار أنهم يروني مخبولاً على أية حال، مهتماً دائماً بأمور لا تعني لهم شيئاً، متفكراً في شؤون هي في رأسي فقط.

لكن الشيخ ظل يوماً بعد يوم، يقدم أذاراً. فالحاجز الدفاعي يجب أن يرمم، وأن عليهم القيام برحلة طويلة شمالاً إلى غابات الصنوبر ليجلبوا الخشب. ثم يموت شيخ في القرية، ويتعين على كل المذكور أن يؤديوا رحلة جنازية تستغرق يومين كي يروه يُدفن.

ثم ها هي ذي الأسماك تلبط. ولأسبوع كامل يظل الرجال يخرجون، يومياً، مع شباكهم ليصطادوها. وفترة أخرى، يمضون فيها بقناديلهم، ليصطادوا الحبار. هل الشيخ، ببساطة، يسخر مني؟ أعلينا، شأننا من قبل، أن ننتظر الخريف؟

إنه الخريف. وغداً نذهب ثانيةً إلى غابات البتولا، نصطاد الغزلان. لا أجرؤ أن أذكر أمر الطفل. ركبنا كما ركبنا من قبل، وقمنا بالتحويلة نفسها صاعدين إلى الهضبة، وخلال ستار الصنوبر حيث يمتطي الموتى هياكل خيولهم. الفرق أن البرد حلّ مبكراً هذا العام. الهضبة غائمة، وضبابٌ رماديٌّ يدومُ أمامنا، عبرها، والأوتاد تقعقع وتتمايل وصيحات الرجال وهم يدورون راكبين، ناثرين حفناتهم من البذور، يدبّقها الضباب، فتتقطع، وترتد إلى حلوقهم.

في الطريق إلى الغابات كانت السماء تنثّ رذاذاً. المسالك ممحوةٌ والأرض مشبعة بالماء والخيول تبعث رشاشاً من الماء خلل بُريكات من الضوء الأزرق اللامع بين الأوراق، أو خلل غيوم رمادية، قذرة. نحن نصطاد الغزلان، نسلخها، نقطع اللحم ونحملة في سلال. لا أثر للطفل. الرجال الآخرون ينظرون قلقين حولهم، وهم مسرورون حين يكون بمقدورنا الابتعاد عن المكان.

أنا أجنّ خيبةً وأسى. شتاء آخر، كيف يستطيع أن يظل حياً؟ كيف أستطيع أن أظل حياً بدون أن أعرف أنه لا يزال هناك؟ ربيعٌ آخر.

أنا أفهم كل ما يقوله لي بهذه اللغة الخام، هؤلاء الناسُ الجهلةُ الطيبون. لقد بدأتُ أعلم حفيد الشيخ اللغة اللاتينية، أن يقرأ، ويلقي قصائد، بعضهاً لي. إنه طفل ذكي، لكنه نكدٌ الطبع، لا يرى نفعاً في ما يتعلمه. أعرفُ، وأنا أستمع إلى الشيخ، الآن، وهو يروي قصصه في ساحتنا الصغيرة، ماذا تعني الأصوات

المختلفة: إنها ريح الشمال، إنها الذئاب، إنها العمالق، إنها اشباح
المحاربين، إنها الظنوب، رأس مقطوع، إنها قاع البحر. قصص
الشيخ خارقة، لا تقارن بما بلغني من الإغريق، لكنها متوحشة،
نوعٌ من اللعبة المبالغ التي لا تشرح شيئاً، إلا أنها تحكي مباشرة
عن كابوس المشهد في هذا المكان ورحلات حلمي عبره. إن
خرافاتنا المتمدنة التي تحكي بأناقة عما نرى ونعرف، تبدو
ضعيفةٌ إزاء هذه الفكاهات الواضحة غير المعقولة التي يظل
الشيخ يرددها. إنها كالشتاء هنا. أنا تملأ العالم. إنها تجعل
الرأس يطن، والدم يخدر. تبدو حقيقية لكنها لا تشرح شيئاً. أنا
أرى بإيجاز، وفي خطفات، كيف يرى هذا الشيخ صديقي، العالم.
إنه مدّش. عار. قاس. رهيب. مضحك. وبالرغم من هذا، يبدو
لي، يومياً، أكثر نبلاً وتهذيباً من أي روماني عرفتُه. أنا، بجانبه،
امرأة عجوزٌ مهسترة. بلا كرامة إطلاقاً.

الخريف يبدأ ثانية. ثمت دخانٌ في الأشياء. ومن جديد نذهب إلى
غابات البتولا.

للتوّ تقريباً، في النور الذهب لنهار خريفي لطيف، والسماءُ
متكسرة في بُركٍ مطر بين الأوراق الصفراء المذرة، ها هو ذا، يقف
ساكناً، أطول بعد هاتين السنتين، بين أشجار البتولا المجرّحة. أنا
مفعّمٌ بهجة. إنه هناك. إنه حقيقي. الآخرون يرونه أيضاً. إنه
ملطخ بالوحل، ركبته وكوعاه ناتئة العظام، وبطنه منكش.
ولدٌ قبيح في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وعلى رأسه عش طير
من الشعر الوسخ.

نحن نجلس، خمسة منا، في حلقة، نحسي قليلاً من الحساء الخفيف الذي جلبناه معنا، بينما الخيل تتجول بين أشجار البتولا، وترعى الأعشاب التي لاتزال ترفع رؤوسها من ركام الورق. إنه الأصيل. أصيل ساكن. كان الواحد منا يمسك كوبه باليدين كليهما. نشرب، ولا نتحدث. فجأة، كان الولد هناك يراقبنا. عيون الرجال سودّ على حافة الكوب، وأيديهم كابية. ننظر جميعاً. أولاً إلى الولد، ثم إلى بعضنا، ونجمد. حتى الخيول تتوقف عن الرعي وترفع رؤوسها إلى زرقة الأصيل المائية، متشمة، وهي تحسّ بحضور آخر. أستطيع أن أسمع تنفّسنا. كأننا جميعاً، للحظة واحدة، مسحورون. وكان الزمن توقّف. وأشعرُ أننا لو استطعنا الجلوس هكذا لمدة كافية، متربعين على الأوراق، بحيث نبدو مثل أي جزء من الغابة، لو تركنا أرواحنا تخرج طليقة، وأصبحنا خشباً، كُدس ورق، أو أشنات - فلسوف يأتي إلينا. أعرف أن الآخرين خائفون. وأن سكوتهم نوعٌ من الرعب. هؤلاء الرجال الذين لا يخافون الفرسان المندفعين في الليل مع سهامهم المسمومة ونيرانهم، الذين لا يخافون الدب الوحشي وأنياه المزبدة، هؤلاء الرجال خائفون من الطفل. أنا لست خائفاً. إن سكوتي هو بسبب خوئي من أننا بمجرد رفع إصبع، أو حبس نفس، قد نجعله يجفّل هارباً.

وهكذا نجلس، لكن كم سنجلس؟ - ونحدّق في بعضنا. الطفل لم يجفّل. لكنّ حصاناً خفض رأسه ليقضم، وسار بيننا، وحين عبر كان المنفسح بين أشجار البتولا خالياً إلا من النور.

أنا أكثر هدوءاً الآن. فهو لا يزال هناك، وهذا ما يهمني . وثمت وقتٌ للبقية. سننزل ليلتين في غابات البتولا.

في الليلة الأولى، وعلى طرف حلقة النار تماماً، أعددتُ طاس عصيدة: خليط حبوب، مغلياً بماء آس، ومطيباً بالعسل؛ ولساعات بعد نوم الآخرين، أجلس ملتقاً بقبائي، مرهقاً سمعي لوقع خطي على الأوراق. أعرف أنه يجب أن يأتي ليراقب. أعرف أنه يبدأ يبحث عنا، كما نبحث عنه نحن. إنه ليحس بنوع من الحنين إلينا، بنوع من الحاجة إلى إرضاء نفسه عنا، من نحن، وما السبب في أن لنا هيئةً، ورائحةً، لا تشبهان مخلوقات الغابة الأخرى.

أتراه بدأ يتساءل عن نوعه هو؟ هل حزر أن جزءاً منا، في الأقل، يشبهه؟ مثل ما نعرف نحن، أنه في هيأته، في الأقل، منا.

أنصتُ، لكنني لا أسمع شيئاً. يغلبني النوم وأنا لا أزال جالساً، مستنداً إلى جذع بتولا، وأستيقظُ مع الضوء الفضي الأول للفجر. أتعتزُّ لأرى الطاس. إنه فارغ. ثمت من جاء ولحسَ العصيدة. غزال؟ أحد شياطين الغابة التي يعبدها هؤلاء الناس؟ الطفل؟ أخفي الطاس تحت قبائي، وأتظاهرُ بأنني كنت أقضي حاجةً، لكن الشيخ يراقبني ويعرف. هو يعتقد أن هذا كله حماقة. وحماقة خطيرة. إنه يخجل كثيراً مني، ومن غباء الكبرَ لدي، بحيث لا يجعلني أرى أنه يعرف. يأمر الشيخ، الشبانَ حوله، بصوت عال وأجش أكثر من المعتاد، كما لو أنه يحاول إخافة الطفل كي يبتعد. النهار رائق، ساكن، والغزلان في كل مكان. والرجال يصطادون

ويذبحون خمسة أو ستة منها، ويبدو مخيمنا في المنفسح مثل
دكان قصّاب. رائحة الدم تعمّ المكان، والجلود تقطر معلّقة من
الأغصان، وقطع اللحم - الأوراك، والأفخاذ، وأنصاف الأضلاع
مكدسة، جاهزة للتحميل. النسوة سوف يملحنها ويذخرنها
للشتاء. العمل يستغرق اليوم كله. سنبني ليلة أخرى هنا،
وننطلق فجرًا عائدين.

أعددت، ثانيةً، طاس العصيدة، ونمت عند الجانب القصي من
النار، منتصبًا بقوة، مستندًا إلى جذع شجرة، مصممًا على ألا
يغلبني النعاس.

لكني أنعسُ مباشرة، وأحلم. إن ما فكرتُ به نصف تفكير، أمس،
في الغابة، ونحن نراقب الطفل، هو أمرٌ صحيح. لقد تحولنا كلنا،
المجموعة كلها، لنمسي بعضاً من الغابة. نحن فطرٌ. نحن أحجار -
أنا أميزُ رفقتي. أنا بركة ماء. أحسُّ بنفسي دافئاً في الشمس،
سيّالاً، مليئاً بزرقة السماء. لكنني مجرد كسرة ضئيلة منها،
وأشعر، بنعومة، أن السحب تتغلغل فيّ، وتُغلغل انعكاساتها.
ومرة... فجأة الأجنحة. العتمة تهبط بطيئةً. ونسمة تُرعرش
وجهي. وحين مرّت العتمة عليّ بدأتُ أخاف. إن روعي تحوّم في
مكان قريب، وأعرف أنها ستعود إليّ أن أستيقظ.

لكنني أخاف فجأة من أن أكون مجرد بركة مطر في الغابة، أحسُّ
بالليل يزحف عليّ، وأحسُّ بنفسي أبرد وأمتليء بضوء النجوم،
أحسُّ بالحرارة تنخفض. أتفكّر بما يمكن أن يكون تجمداً. أتخيلُ
ذلك. لكن، فقط عند تخوم نفسي، حين بدأت بلورات الجليد الأولى

تتكون مطلقاً. الأمر مخيف. ماذا سيحصل بروحي إذا؟ أنا أرقد في عتمة الغابة منتظراً القمر. ثمت خطي، ناعمة، قربي. غزال. وجه الحيوان ينحني عليّ. أنا ممتليء بالرقعة له. لسانه يلمس بشرتي، ويلحس قليلاً. لقد أخذ شيئاً مني، فيه، لكنني لم أشعر، البتة، بأني نقصت. إن إحساس بشرتي لخارق. أنا أتكسر في دوائر. بعضي يدخل في الغزال، الذي يرفع رأسه بطيئاً، وبيتعد على الأوراق. أشعر ببضعة مني تبتعد، والباقي يسكن ثانية، يستقر، ويغدو صافياً. فجأة سألت نفسي: وماذا لو جاء ذئب؟ ماذا لو أن اللسان التالي الذي لمسني كان لسان ذئب، خشناً، جشعاً، يشربني حتى آخر قطرة، ويتركني يابساً؟ هذا ممكن أيضاً. أتخيل الأمر، وأنا أسحب في معدة الذئب. أنا أتهيأ للأمر.

وقّع قدم آخر، أكثر نعومة من الأول. أعرف منذ الآن أنه الطفل. أراه منتصباً أطول من الغزال إزاء النجوم. إنه يركع وينحني نحوي. هو لا يلحسني كالغزال، لكنه ينحني عليّ جداً قريب حتى لترجف أنفاسه بشرتي. يغرف قليلاً، ويقطر نور النجوم من أصابعه في ندف لامعة تساقط عليّ، ويشرب. أنا أتكسر ثانية. الاضطراب مخيف. الأمواج تتكسر صاخبة على تخومي. وعندما أعود إلى تماسكي يكون ذهب. أنا لا أزال أشع بنور النجوم. أنا. أستيقظ.

العتمة لا تزال. الطفل، أراه، إنه يضع للتو، الطاس، على الأرض. إنه منحن، يمسكه بكلتا يديه، وقد تهدلت خصلات الشعر الخشن على وجهه.

يسمعني أنتفس. إنه لا يبعد عني أكثر من عشرة أقدام وتلتقي
عيوننا لحظة، قبل أن يرمي الطاس. الطاس يتدحرج نحوِي.
يثبت على قدميه، ويقف هناك، حائراً، كأنه غير متأكد، ربما للمرة
الأولى، إلى أي العالمين يجب أن يفرّ - أيعود إلى الغابة، أم إلى أي
عالم جديد مهما كان، عالم تشمّمه، ولمسه، وأدخل في نفسه شيئاً
منا. لقد أكل من طاس فخار، صنعه الناس، على دولاب. ولقد أكل
حبّاً بُذِرَ، وحُصد، وطُحن، وُغلي، وحُليّ بالعسل.

لقد مرّ شيء بيننا، ونحن نتواجه في الظلام. أعرف أننا تحدثنا. في
لغة وراء الألسنة. في السنة القادمة، لا حاجة إلى اصطياده. هو
سيبحث عنا.

الآن، فقط، يتراجع ببطء، مبتعداً في الظلام. قدماه العاريتان
تنسحبان جرّاً على الأوراق. وعليّ أن أنتظر شتاءً كاملاً يمضي.

حدث هذا كله كما عرفتُ أنه سيحدث.

انقضى العام سريعاً. وأنا عدت متماسكاً قوياً، وتوقفت عن نَدب
حظي العاشر. صرت أذهب في جولات طويلة في الدغل المليء
بالحيوانات الصغيرة والحشرات، وكلها يستحق الملاحظة. أهبط
إلى الشاطيء وأتحدث مع الصيادين، بينما البحر يطحن ويفرقع
الحصا الأسود الناعم. البحر في هذه النواحي مليء بأسماك
غريبة، كلها جميلٌ بطريقته، كلها مخلوقٌ كاملاً حسب حاجاته،
وكل تفصيل من تشريحها نافعٌ، وضروري، ومرغوبٌ فيه لهذا
السبب، حتى لو كان بين هذا السمك ما يُرعب. لم أعد أجد خطأ في

الخليقة، وتعلمتُ أن أقبَلُها. إن فينا لقوةً تعرف غاياتها. هذه القوة هي التي تدفعنا إلى أمام، إلى حيث يجب أن نصبح في النهاية. وعلينا فقط أن نعي الإمكانية، والروحُ في داخلنا هي التي تجعل الإمكانية فعلية بطريقة ما. هذا هو المعنى الحقيقي للتحويل. إنه هو المَسْخُ الحقيقي. إن ذواتنا اللاحقة متضمنةٌ فينا، كما الأوراقُ والأزهارُ في الشجرة. علينا فقط أن نجد الربيع ونُطلقه. هذه التغيرات بطيئة إلى حد لا يمكن تخيُّله. وهي تستغرق أجيالاً. لكن هذه السيورة تفعل فعلها. ونحن نتيج جيل بعد جيل أراد أن تكون هكذا. وأنت، أيها القاريء، ما أردنا، نحن. أنتم، الآن آلهة؟ هل وجدتم أجنحة؟

كل يوم أخرجُ مع الشيخ. إنه أقرب صديق لي. كم غريب أنه كان عليّ أن أترك قومي لأجده. علّمني كيف أجوِّد شبكة، وبدأتُ أتقنُ هذا. هناك أنواع مختلفة من الشبّاك، ومن الفخاخ أيضاً، لمختلف أنواع السمك. وثمت صنارات متنوعة أيضاً. وأنا سعيد لأنني أتعلم هذا كله. الجميلُ هو الطريقة التي يناسب بها، شيء، بصورة كاملة، شيئاً آخر، وجميلٌ أيضاً ذكاؤنا في العثور على العلاقة الضرورية بين الأشياء. إنه كنوعٌ من الشعر، أمرُ الشبّاك والصنّارات، هذه التماثلات القديمة. بدأتُ أيضاً أجمع البذور في جولاتي بالدغل - هناك أزهار مستنقعات صغيرة، صغيرة جداً بحيث لا تكاد تراها، وحين أعود أدفعها في الأرض بسبّابة قوية، فتنبت. لقد شرعتُ أصنع بستاناً مهماً كان بسيطاً.

وطوال الشتاء أتدرب مع مجموعتي من الحرس، واكتشفتُ في ذلك الأمر الذي يجب أن يكون أبي عرفه، مهما أنكرته، وهو

قسَمَات الجندي. كم تغيرتُ! أي ذاتٍ مختلفة جداً بدأت تطلع في!

أنا الآن أفهم كلام هؤلاء الناس مثل كلامي تقريباً، وأجده مثيراً للمشاعر بصورة غريبة. إنه لا يشبه، على الإطلاق، لساننا الروماني، الذي صُممت نهاياته لتعبر عن الاختلاف، عن أضالٍ دقائق التفكير والشعور. هذه اللغة معبرة أيضاً، لكنها تعبر عن الحياة النيئة ووحدة الأشياء. أعتقدُ أن بمقدوري كتابة قصائد بها. وحين أرى العالم من خلال هذا اللسان الآخر فإنني أراه بصورة مختلفة.

إنه لعالمٌ مختلف لكنه يبدو أقرب إلى المبدأ الأول للخلقة، أقرب إلى القوة التي تصنع الأشياء كما هي وتغيرها إلى ما ستكون عليه. بل شرعت حتى في أن أجد عيني تبتهج بالأشكال البسيطة لهذا المكان، والمدى الأضيّق للألوان، والخطوط القاسية للجرف، والدغل، والمنفَسح، والضوء المائي. الآن، والربيع لا يمكن التعرف عليه بالبراعم والأوراق الجديدة على الأشجار، فإن عليّ البحث عنه في نفسي. أشعرُ بالجليد، في يتكسر. أشعرُ بنفسي أتحررُ وأتدفق ثانية، عاكساً العالم. وهذا ما يعنيه الربيع.

كما أنني في محاججات ليالي الشتاء الطويلة، ربحتُ معركتي مع ريزاك. ففي الخريف، حين تعرى أشجار البتولا، سوف نخرج ونجد الولد، وفي هذه المرة، سنعود به، إن تحقق ذلك بدون أذى.

لدى ريزاك شك واحد. إذ عليه الحصول من الشامان على تأكيد بأنهم يستطيعون المجيء بالولد إلى القرية، دون أن يغيظوا بعضَ أرواح الغابات.

أعتقد أن ما يخشونه، هو أنهم بإدخالهم الطفل إلى القرية، يكونون بلا دفاع إزاء الكائن الذي ربّاه وحمّاه. ربما كانت الذئاب التي تطوفُ بالحاجز الدفاعي شتاءً، عاوية أعلى من الريح، كُتلاً رمادية تشبه أرواح السهول الشتوية، هزيلة، حديدية الأنياب، متصوّرة من البرد. ويتساءل ريزاك إن كان بمقدور الولد أن يحول نفسه ذئباً في شهور الشتاء؟ أأكل ذلك كان يظل على قيد الحياة؟ وأين سنكون آنذاك؟ أليس في استطاعته أن يتسلل إلى الخارج ليلاً، ويفتح البوابات لإخوته؟ أم أن روحاً أكثر وحشية ورهبةً من الذئاب قد ربّاه؟ قد يكون حيواناً لا نعرفه، ولم نره. ماذا لو كان على اتصال بذاك، وأن له قدرة اتخاذ حياة لمخلوق نتخيل فقط شكله ورعبه، وليس لنا سحرٌ يردعه؟

أنا أجادلُ بأنه ولدٌ، حسبُ. طفلٌ ذكّرٌ، بشرٌ مثلنا، ويصدّقني ريزاك، أو يتظاهر، لأن لديه رغبةً عظيمةً، بحضوري، في أن يبدو أرفع من قومه ذوي الخرافات، ومعقولاتٍ مثلي كما يعتقد. لكنني أضلله في الواقع. أنا أعرفُ أنه ليس ولداً عادياً. إنه الطفل.

الصيفُ يأتي، ويزهر بستانني. أزهارٌ بريّةٌ، معظمها كنت وجدته في المَنَاقع أو بين سيقان الشوفان، أو في بقعتنا الصغيرة المحروثة. من يدري من أين هيّت هذه البذور حتى وصلت هنا؟ العناية جعلتها قوية، والتغذية المنتظمة بالتراب العضويّ والسماذ أظهرت لونها، أزرق، أحمر، أصفر.

النسوةُ يرين حماقةً لا تُصدّق في أن يُبذل جهد كهذا على شيء لا

نستطيع أكله، لكنهن يحبين الألوان، وسعيدات إلى حدّ أنهن يزودنني، يومياً، ماءً قليلاً من مخزوننا الشحيح. أعتقدُ في الغالب أنهن يمازحنني كأني طفل. كلُّ ما حولنا عدا ذلك، موجودٌ تماماً للاستعمال. النسوة لا يستعملن حلياً. وما يخطئه ذو خيوط قوية، لكن بلا غرزة واحدة جميلة. أزهارى فقط هي اللعوب، جزءاً من حياة قديمة لم أستطع أن أهرها كلياً. فقط الوقت الذي أصرّفه عليها، هو لعبٌ.

لدى هؤلاء الناس، اللعبُ مفهومٌ جديد. كيف لي أن أجعلهم يفهمون أنني حتى قدومي إلى هنا، كان اللعب الشيء الوحيد الذي عرفته؟ كلُّ ما ثمنته، من قبل، كان ثميناً لأنه عديم لفائدة، ولأن الوقت المصروف عليه لم يكن مطلوباً، بل كان موهوباً مجاناً، ولأن اللعب يعني أن تكون حراً. أظن كلمة حرّ ليست موجودة في لغتهم. لا شيء هنا حرٌّ من طبيعته، ومن قانونه.

لكننا أحرارٌ بعد هذا كله. نحن ملزمون لا بقوانين طبيعتنا، وإنما بالطرائق التي نتصور أننا نتحرر بها من تلك القوانين بدون أن نكون عنيفين إزاء كينونتنا الأساسية. نحن أحرارٌ في أن نسمو بأنفسنا، إن كنا نملك الخيال لذلك.

أصبرُ زهوري الصغيرة لها من التخريب هنا، مثل ما كان لقصائدي في روما من تخريب. إنها البداية. والتغييرات الأولى. أعرفُ أنني سأجدُ، في أحد الأيام، واحدة من نساينا تتوقف وهي تعبر الساحة حاملةً كيسَ حبوب، كي تشمّ واحدة من أزهارى المزوّقة. وهي ستخطو، بدون

أَنْ تَعْلَمَ، خُطُوَّتَهَا الْأُولَى فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ.

فِي غُضُونِ ذَلِكَ، لَا أَفْكَرُ إِلَّا بِالطِّفْلِ. وَالْبَقِيَّةُ مَلءُ وَقْتِ فَارِغٍ.
يَمْضِي الصَّيْفُ وَزَهْوَرُهُ. يُوْتَى بِالْحُبُوبِ لِتُدْرَسَ، وَتُخْزَنَ.
الْخَرِيفُ ثَانِيَةً.

نَنْطَلِقُ لِنَأْتِيَ بِهِ.

لَا أَرْغَبُ فِي أَنْ أُرْوِي كَيْفَ حَدَثَ الْأَمْرِ. فَبِاعْتِبَارِي جَبَانًا، لَمْ
أُشَارِكْ فِي الْمَطَارِدَةِ، وَكُنْتُ أَفْضَلُ إِلَّا أَشْهَدَهَا. اسْتَنْدْتُ إِلَى وَاحِدَةٍ
مِنْ أَشْجَارِ الْبِتُولَا، وَقَدْ جَعَلْتُ يَدَيَّ عَلَى أُذُنِي، وَتَرَكْتُ الْآخَرِينَ
يَفْعَلُونَهَا عَنِّي. الْخِيُولُ الضَّخْمَةُ تَنْدْفَعُ فِي الْغَايَةِ، مَهْشَمَةٌ كَدِيسَ
الْوَرَقِ بِحَوَافِرِهَا الْحَدِيدِ، وَالرِّجَالُ يُولُولُونَ وَيَتَصَايَحُونَ،
شَاقِّينَ سَبِيلَهُمْ فِي دَوَائِرَ، بِحَيْثُ أَنْ الطِّفْلَ، وَقَدْ دُفِعَ هُنَا، وَهَنَّاكَ،
فِي النَّبْتِ الْكَثِيفِ، صَارَ مَشْدُوهُمَا تَمَامًا، بِالصَّيْحَاتِ الْآتِيَةِ مِنْ كُلِّ
الْإِتْجَاهَاتِ، وَبِالْأَشْكَالِ الشَّبَحِيَّةِ الْمُنْدَفِعَةِ مِنْ كُلِّ أَجْزَاءِ السَّمَاءِ.
وَعِنْدَمَا تَعَثَّرَ فِي الْمَنْفَسَحِ، وَتَوَقَّفَ أَمَامِي، كَانَ فِي غَايَةِ الذَّعْرِ،
مِنْهُكَأً، نَصَفَ مَجْنُونٍ، كَتَفَاهُ مَمْرُقَتَانِ تَدْمِيَانِ حَيْثُ تَعَلَّقَتْ بِهِ
الْفُرُوعُ، وَجَسْمُهُ مَلْطُخٌ بِالْوَحْلِ. وَحِينَ وَقَفَ هُنَاكَ، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ
الرِّجَالُ آخِرًا، أَطْلَقَ فَمَهُ عَوَاءً رَهِيْبًا لَمْ أَسْمَعْ لَهُ مِثْلًا مِنْ قَبْلِ
إِنْسَانٍ.

لَكِنْ حِينَ مَالِ أَوَّلِ الشَّبَابِ عَلَيْهِ، مِنَ الْخَلْفِ، اكْتَشَفَ فَجْأَةً قُوَّةَ
جَدِيدَةٍ مِنَ الطَّاقَةِ تَنْطَلِقُ مِنْ قَبْضَاتِهِ وَقَدَمِيهِ وَأَسْنَانِهِ، حَتَّى كَتَمَ
الشَّبَابُ فَمَهُ وَمَنْخَرِيهِ بِيَدٍ قَاسِيَةٍ، مَعْتَصِرًا أَنْفَاسَهُ مِنْهُ، فَصَارَ

الآخرون قادرين على الإمساك به وربطه بالسيور. العينان فقط ظلتا تدوران وحشيتين، وفكرتُ وأنا أرى التشنجات التي خضت جسمه بأنه قد يكون في نوبة.

وضعتُ يدي عليه، فانبعث هسيسٌ متوحشٌ من منخريه، وازدادت تشنجاته. أخيراً تركناه وشأنه، مربوطاً مثل خنزير، تحت شجرة بلوط، بينما بدأ الشامان طقسه. ويبدو أن الغناء العالي لصوت الشامان الآخر، الصوت القادم من القطب، قد هدأه. كأن الشامان كان يغني الوحشية منه، وهو يقودها شمالاً في غشيته إلى حيث الدائرة القطبية للبياض الأبدي، ويهبط بها خلال ثقب حفره عظم سمكة، إلى الجليد. عندما أفاق الشامان من غشيته، وخرج من دائرته، كان الطفل نائماً، وظل نائماً طيلة رحلة العودة، مطروحاً إلى الأمام، على سرج الشيخ، وواصل نومه ليوم كامل بعد عودتنا.

أي موكب غريب كنا نبذو، صاعدين المنحدر الطويل من المستنقعات، في شمس الأصيل، وضوء الخريف يغمر بطائح النهر، والخط الأسود الطويل للجروف، التي يرقد البحر وراءها، وهو يلتمع، منبسطاً رمادياً. ترك الأطفال تخويضهم في البرك وركضوا متصايحين خلفنا، ناظرين بعيون متسعة. والنساء اللاتي يجمعن ثيابهن من العليق، جئن ووقفن يراقبننا، وأذرعهن ملأى بالغسيل، ملتقات بشالاتهن، فلا تبدو إلا عيونهن. شائعة القبض على الولد سبقتنا. الجسم النحيل، في حجم الغزال، المطروح عريضاً على حصان الشيخ، ربما كان

هامداً، ناشف الدم والروح، مثل المفاصل التي كنا آتين بها الى البيوت، على الخيول الأخرى.

لكن الأنباء التي وصلت بالفعل، تقول إن المخلوق، كائننا ما كان- ولدأ ذئباً، إلهاً صغيراً، قنطوراً - هو على قيد الحياة.

لقد قبلته القرية داخل أسوارها. وهذه هي البداية فقط.

3

ماذا فعلتُ؟

الطفل يرقد، وهو لا يزال موثقاً، في ركن من الغرفة التي تواجهني. النسوة منذ الوهلة الأولى، رفضن أن يلمسنه. ويتعين عليّ أن أغسله إذا ما وسخ. هن يُعددن طعامه، عصيدة دقيق محلاة بالعسل، لكنهن لا يتخطين عتبة الغرفة. أفكُ وثاق يديه، وأترك الوعاء، منصتاً إليه عند الباب وهو يسحب نفسه على القش، يرشف العصيدة، ناخراً مثل حيوان جائع. هو يئن لكنه لا يبكي. عيناه تظلان جافتين، ولا شيء كالنحيب البشري يصدر منه، ولا أن يسلم نفسه للدموع التي قد تحررُ الطفل فيه. الأنين يأتي من مكان ما في أعالي رأسه، وقد تعلمه من أحد الحيوانات. يظل يئن ساعات وساعات. ولكي يريح نفسه، ومثل ما يفعل بعض الأطفال حين يمص إبهامه، فإنه يستثير نفسه دون خجل، ببديه، حتى يبلغ سلسلة من الارتعادات الصغيرة، مثل ما رأيت القروء تفعل، ويعيد الأمر مراراً، حتى تنهكه التشنجات فيهدأ، ويقعي في الزاوية، ساحباً ركبتيه إلى أعلى بصورة حادة، مزموماً الفم، أو يتكور على القش، ركبتاه تحت حنكه، وكوعاه بينهما.

نقضي ساعات، لا نفعل فيها سوى أن ينظر أحدهما إلى الآخر. وليست لدي أي فكرة عما يعتمل في نفسه من مشاعر. إنه لا يبدي علائم اهتمام بأي شيء أفعله. أنا أكتب قليلاً. أكل. أرتق تمزقاً في قبائي. إنه يحدق لكنه لا يرى. حين لمست للمرة الأولى، في المنفسح، حاول أن يعضني بقواطعه الحادة. والآن يتقبل كل ما أفعله بسلبية بدأت تقلقني. أنا أخشى أننا قد نكون قتلنا، بالفعل، شيئاً فيه. ويعتريني خوف رهيب من أنه قد يموت - من

أن ما جئنا به الى هنا، جزءٌ حيوانيٌّ منه، يمكن إسكانه وإطعامه لفترة، وإبقاؤه معنا بالقوة، لكن فقط إلى حين يدرك أن الروح قد ذهبت، انسَلَّت بعيداً خارج ذراعي الشاب الأول الذي اصطاده وأمسك به، أو أنها تبددت خارج جسمه في تلك الرقدة الطويلة الأولى، وهذا أسوأ.

أنظر إليه ينام. أطرافه تنتفض مثل أطراف كلب، مع ارتعادات لا إرادية، صغيرة، داخل الفخذين. أهو يحلم؟ لو استطعت فقط أن أتأكد من أنه كان يحلم، إن ما يتعين عليّ الاتصال به أخيراً، وتتبعه ببطء عبر سلالم الكيونة فيه، لا يزال موجوداً هناك. يجب أن أعرف أنه يستطيع أن يحلم. يجب أن أطمئن نفسي أنه قادرٌ على الابتسام، قادرٌ على البكاء.

إلا أنني لم أصفه حتى الآن.

هو في حوالي الحادية عشرة من العمر، طويل، قويّ البنية، مهزولها، مع تضخم ومنتوء في مفاصل الكوع والركبة. على ذراعيه وساقيه قروح، وندوبٌ قديمة، تبدو كأنها تشويبهات للون اللحم، بُنية تحت الصفرة. الأطراف خفيفة الشعر. والصدر بلا شعر. لكنّ على امتداد العمود الفقري خطاً من الشعر، محمراً في لونه كالثعلب، وهذا ما أربع النسوة، وجعلهنّ يمتنعن عن لمسه، مع أن الظاهرة شائعة بما يكفي. فبإمكانك رؤيتها عند الأطفال الصغار في كل مكان، وهم يلعبون عراً على عتبات المنازل، أو حين يتراشقون في الصيف بالماء، وهم تحت الرذاذ. وعادةً يمر الأمر بدون اهتمام. فقط عند هذا الولد، صار لدى

النسوة، نوعاً من علامة. ذلك، والقدمان المفطحتان المتصلبتان بسبب كونهما مكشوفتين في كل ظروف المناخ. أظافر القدمين مهترئة، وباطن القدم صار ثخيناً ذا قشرة عميقة، ربما مثل صحن فخار، لكنها لا تشبه، بأي طريقة، إلا القدم العادية. وإنها لشائعةٌ سخيفةٌ تلك التي جاء بها الولد لولو من القرية، والقائلة بأنه مغطى بالشعر، وأن له حوافر. سحبتُ الولد هذه العشية، وجعلته ينظر الطفل، ويخبرني ما رأى. لكنه كان أشد ذعراً من أن ينظر كما يجب، وأظنه لم يقتنع مع أنه رأى ما تمكن رؤيته. إن ما يتخيله أقوى بكثير من الحقائق.

أعرفُ ما يفكر فيه. هو يعتقد أنني سحرتُ، بطريقة ما، حوافر الطفل، وجعلتها قدمين معوّقتين لأخذه، أو أنني سحرته.

تصورت أن الولد، باعتباره في عمر الطفل، ربما كان لديه اهتمامٌ خاصٌ به، وتعاطفٌ ما إزاءه. لكن لم يكن لديه شيء من هذا. كان ينظر إلى الطفل مستنكراً، كأنه يوشك أن يُستبدل هنا بسواه، وكان - أهذا هو الأمر - الطفل قد يسرق روحه، وهو نائم. هؤلاء الناس يعتقدون عميقاً بالسائرين في نومهم، وبسارقي الأرواح. هل يشكّون، كما بدأت أفعل، بأن الطفل قد فقد روحه، وبينما نراه متكوماً نائماً في زاويته، قد يتمكن مثل الشامان، من مغادرة جسمه، من خلال الجدران، إلى الغرفة الأخرى، والدخول في جسم لولو بينما هو غائب في إحدى رحلات الحلم التي اعتاد الأولاد الصغار أن يقوموا بها، داخل غابات الصيد، أو النهر؟

أعرفُ أن العجوز وأم الولد تشجعان في هذا، بسبب تأثيره في

الشيخ. لكن ريزاك، لسبب أجهله ظلّ سَنَدِي في الأمر. ضد النساء. وضد الشامان، الذي جاء مرةً ليتفحص الطفل، وفي تلك المناسبة رفض أن يغني - دليلٌ آخر على النساء يجهرن بالكلام ضدي، ويناصبنني العداء. الشامان والنساء، طبعاً، في صف واحد.

هكذا نجلس طوال النهار في شبه ظلام.

توصلتُ إلى أن أحزر قليلاً مما يفكر به الطفل عن طريق ملاحظة ملامحه. لكننا لم نفلح في التواصل، مثل ما حدث، من قبل، حين تكلم واحدنا مع الآخر في الغابة. كأن روحه التي تكلمتُ معها آنذاك لم تعد حاضرة. أراقب الفم بأسنانه الصغيرة الكسيرة. إن له طريقة في سحب شفثيه إلى الخلف والتنفس بحدّة كأنه يتألم، مع أنه يؤدي الحركة ذاتها، كما لاحظتُ، حين يهيج نفسه، وفي هذه الحركة تتكشف بنية العظام الغريبة، الخدان المرتفعان، الحنك المدبب، خطوط الفك. أراقب العينين أيضاً. إنهما فاحمتا السواد، وغائرتان. الحاجبان يميلان إلى أعلى. والشعر الذي غسلناه وجززناه قليلاً، في سواد المداد، مسترسل، خشن، لا حريري، ولا ناعم، مع أن سبب هذا يعود إلى سوء التغذية، أو لحالة نفسه الهابطة، أو لأن نفسه لم تعد هناك. لاحظت، سابقاً، كيف أن الشعر يغتذي من الروح، فيلتمع، أو يخبو، وبخاصة عند المرضى. هو لا يزال، بالرغم من حُكنا وقَرُكنا، أقلّ من نظيف. كأن الأرض تغلغلت عميقاً في جلده حتى اكتسبَ لونها. ربما كانت أوساخ الجروح القديمة سبب الندوب البنية على أطرافه. إنه ليس جميلاً، البتة، كما كنت تخيلتُ الطفل، لكني مليء

بالعطف والشفقة عليه، وبحاجة إلى أن أحرره في جسم أنقى،
وذلك مثل ألم أعانيه.

أفكر وأفكر. أي خطوات تلزم؟ كيف يتعين علي أن أبدأ؟ أعرف أن
العطف هو السبيل - والوقت. أن أكشف له أولاً ما هو عطفنا،
وما نوعنا، ثم أن أقنعه بأننا من نوع واحد. من هذا، يجب أن
يكتشف ما هو.

لكننا بدأنا بداية سيئة جداً. كيف بمقدوره أن يرانا إلا قساة؟
أي من الوحوش فعل به ما فعلنا؟ أي من الوحوش كان
سيطارد على صهوات الخيل، ويربطه ويحمله بعيداً عن كل
ما عرف والف؟ ثم هناك عداوة الولد الذي قررت أن يظل بعيداً
عنه. وعداوة النساء. وبالتالي، علي أن أفعل هذا كله، بنفسه. علي،
أولاً، أن أكون الوحيد الذي له علاقة به.

أفكر، على نحو غريب، بالذئب الذي رأيته في حلمي، الذئب الذي
هدد بامتصاص ماء كينونتي كله، وبدأت أخاف.

الأسابيع تمر. وأنا لم أعد أترك الغرفة، الآن حين تأتي النسوة
بطعامه. كان في أول الأمر محترساً، كأنني نصبت له فخاً، كما
فعلت من قبل. فهو يتجه إلى الطاس، يشمه، يفحصه، يتناوله
بيديه، وطيلة أكله، أبطأ من السابق، يظل يراقبني من حافة
الطاس، بعينه السوداوين العميقتين، اللتين تبدوان هذه الأيام
ذواتي نقاط حمر. وبعد أن ينظف آخر الطعام بإصبعيه، يدرج
الطاس على الأرضية، ويسحب نفسه عائداً إلى زاويته، ويجثم
رافعاً ركبتيه، ربما انتظارك لما قد أقوم به من حركة. أما الآن فهو

يأكل غير منتبه إليّ. كأنني لست هناك. ناخراً وهو يأكل.

كما أنني جئت بحشيتي القش إلى الغرفة، لأنام في الزاوية المقابلة. لقد اعتاد هذا أيضاً. وبدأت أشعر أنني أتواصل معه، ثانيةً، مع أن من المستحيل أن أعرف متى حدث هذا التواصل. ربما حدث وأنا أغسله. فهو يستسلم إلى ذلك بسهولة كافية، بالرغم من أن هذا لا يعني قبوله بأن يلمس في أي جزء من أجزاء جسده الحقيقي.

ربما حدث التواصل في لقاء مصادفة بين عيوننا ونحن نتلاحظ بصورة متقطعة. أو أنه حدث في المنام، ونحن نتحرك في المنام بالواسطة السائلة، كأننا نطفو معاً في بركة. لقاءً عابراً لحلم بآخر، فيض في نومه، أو فيض نومه في نومي، في نقطة لا يعرفها الذهن المستيقظ، أو في إشارة جزء من التيار غير المرئي بينما أنا أكتب، وأغمس قلمي في الحبر، ويداي تتحركان على الرق، أو حين أسحب الموسى على ذقني. ربما اصطدم بأحد هذه الأمور، فأحس به. من يدري؟ لكنني متأكد الآن من أن التواصل قد حدث. فهو لم يعد يئن، ولا يترجج وراء وأماماً على ركبتيه، مُصدراً زمجراته الصغيرة من مؤخر حلقه. إنه يراقب. وأبدأ أعتقد أن ما سأسميه ذهناً قد علّق، وشرع يطلّع في الغرفة. أنا أشعر به. إنه لهناك أخيراً. إنه هناك. وقد بدأت عملية تَبْدِيهِ خارج نفسه تعمل بذاتها.

اليوم وأنا أغسله، وضع أنامله، بنوع من الفضول الخجول، على ظاهر يدي، متحسساً مادة البشرة - ثم ارتدّ سريعاً، كأنني سأعترض وأعاقبه. كان التأثير غريباً، ومخيفاً قليلاً. كأن حيواناً خرج من الظلام ولمسني بلسانه. هل بدأ يحسّ أخيراً بانطباعه

ما عن كينونته؟ أيعني هذا، بالنسبة له، أمراً مثل لمس انعكاسه في المرآة؟ أتساءل إن كان لديه أي مفهوم عن جسده، ما هو، ما هيأته، ما أبعاده، كيف يحتلّ مكانه الصغير من الكون؟ أينبغي أن يتخيل جسده أولاً، وبعد هذا، فقط، تأتي معرفة ما هو؟

ثمت ذكاء. أنا أشعر به. والآن، أكثر فأكثر، وأنا أمضي في بعض عملي، كأن أقرأ مثلاً، فأدرك أن في الغرفة مركزاً للطاقة منفصلاً يُربك أفكارِي، ويرسل تياراً معاكساً يتجه مثل أمواج ضوء نحوي، ويتكسر على حافة وعيِي. أعرف أن الغرفة ملأى بأحاسيس ليست أحاسيسي، حَسْبُ، وبأفكار ليست لي، تتواشَب في الجو الساكن الرطب للضحى، حيث أجلسُ وأنا أكتب، والولد متوترٌ مثل نابض، يَرَقب من زاويته - إنها بدايات قلق الذهن، قلق الجسد، إنها اختلاجات حياة جديدة فيه.

إنه طفل، على أي حال. وهو يحتاج إلى نشاط. جسده يحتاج إلى التعبير عن نفسه بالحركة، وذهنه يحتاج إلى أن يقترب من الأشياء، ويلمسها، ويختبرها.

الآن أمضى الطفل، هنا، أسبوعين. بعد تلك الأيام الثلاثة الأولى حين نام، وحاولت روحه أن تدفن نفسها في الأرض، وهذه الأيام الأخيرة حين عاش في حالة نصف النائم، بعد الأيام كلها، بدأ ينتقل من جديد إلى اليقظة، إلى الانتباه الكامل لفتوّته. أمس، وأنا خارج من الغرفة لفترة وجيزة، بدا أنه لمس لوازم كتابتي. كان الحبر مُراقاً. مسحت الحبر، بدوّن أن أبدي أي علامة تدلّ على أنني

عرفت بأنه كان يعبث بالأشياء. ملأتُ الدواة، ووجدت موضوعي من الرّق. وكدتُ أنفجر ضاحكاً لرؤيتي لسانه أزرَق. اليوم، وقد خرجتُ من الغرفة أيضاً، وقفتُ خلف الباب، مباشرة، وراقبت. سحبَ قدميه نحو لفّة الرّق، وحدّقَ فيها، وخمشها بسبّابته، ثم خفض رأسه وتشمّم. يجب أن يكون اندهش كثيراً لأن اللّفة لا تزال تحمل رائحة الجلد الحيواني. افتتن ثانيةً بالحبر. تشممه أيضاً، لكنه اعتنى بالألّا يريقه. تناول القلم بيده، وكان دقيق الملاحظة بحيث أمسكه بطريقة غير ماهرة، لكنها صحيحة، بين الإبهام والسبّابة. بدا معجباً بنفسه. غمس القلم في الحبر، وهو يعاني صعوبة في أن يدخل القلم المتوازن بين أصابعه، في الفتحة. انحنى على الدواة، وبدت على وجهه نظرة التركيز البشرية الخالصة، تلك التي يراها المرء على وجوه الأطفال الصغار، وهم يحاولون للمرة الأولى أن يرسموا، أو يخربشوا للكتابة، أو ينظموا خيطاً في إبرة - العينان مثبتتان، اللسان مدبب في زاوية الفم، يتحرك مع كل إشارة من اليد، كأنه أيضاً أحد الأطراف التي يجب أن نستعملها نحن البشر، إحدى وسائلنا في ولوج العالم، وفي تحريك أشياءه وتغييرها. أمن هنا يبدأ الكلام؟ في حاجة اللسان تلك إلى أن يكون فعّالاً في العالم، كاليد بين الأشياء، تمسك، وتدفع، وتشكل، وتعيد الصنع؟

وفي مراقبتي، خلف الباب، محاولات الطفل الأولى، التعامل مع أشياء عالمه الجديد، وجدتُ عينيّ مبتلتين بالدمع.

ثمت شيءٌ في إنسانيتنا، في الدخول البطيء للمخلوقات من نوعنا،

إلى كل ذلك الذي اكتشفناه وصنعناه - إلى أنفسنا، وإلى العالم من حولنا - إنه لمؤثر دائماً مثل هذا، فالمرء يحسه في جهود الطفل الأولى ليدفع نفسه أعلى، ليدفع نفسه تلك الخطوة إلى أعلى التي يجب أن تكون استغرقت لدى أسلافنا قروناً ليتخلوها، ويحلموا بها، ويجدوا الأطراف لها. أو في وضع طابوقة فوق أخرى، للمرة الأولى، بصورة متقلقلة، كي يُبنى برجٌ صغير، بدايات مدينة. كل تلك العصور من الاكتشاف البطيء، أعاد الطفل العيش فيها، خلال شهور قليلة حسب، وهو يستفيد من تجربة لا يستطيع البتة أن يكونَ امتلُكها، والتي يجب أن تكون كامنة فيه، وفي حيوات تحت حياته، لآلاف من الموتى طويلاً، هؤلاء الذين جلب وعيهم، معه، بطريقة ما، إلى العالم. كم هو مؤثر، إذًا، أن أرى طفلي، يصنع الاكتشافات التي ستؤدي به، بعد سنين من النفي، إلى ميراثه، إلى المجتمع الذي يخصه.

الآن، تركتُ يديه حرتين، ولعدة أيام. أخيراً، هذا الصباح، فككتُ وثاقه كله. إذ لم يعد ضرورياً. وكل ما سيربطه بنا، وبحياة جديدة، هو قائم غير مرئي، ولا بد أنه يتحسس: شبكة الشعور، أي هذه الغرفة، الأوتار - فضولٌ، حاجةٌ إلى أن يستنبط ما ينفعه من كل هذه الأشياء المحيطة به، والطريقة التي تحدده بها الأشياء، وتجلو استخدامات جسده هو - هذه هي الخيوط التي تمسك به الآن، والتي سيسافر ذهنه عبرها ليكتشف كم هو مرتبط بنا، بالطاس، ومغرفة الماء والسل، والإسفنجة التي أغسله بها، والتي شرع منذ الآن يستعملها بنفسه، والدواة، والقلم والرِّق، والكرة الملونة التي وضعتها حيث لا تحطُّها عينه،

والتي يجب أن يكون أدرك أنها له، فأنا لم ألمسها البتة. أشعر بأن
 ذهنه ينطلق نحو هذه الأشياء. أشعر، حتى في الظلام،
 بالارتعاش الخفي للأوتار.

لسبب ما، في هذه الساعات الطويلة من الجلوس إلى الطفل، أراقبه
 يتحرك ببطء خارج نفسه، محاولاً أن أتخيل نفسي، مكانه،
 لأكشف كيف يجب علي أن أمضي به إلى طفولته المفقودة، وجدّتي
 أنزلق، أكثر فأكثر، إلى طفولتي ذاتها - المفقودة أيضاً حتى
 الآن، أو المرفوضة، إلا أنها المنسية طويلاً بالتأكيد. أسقط في
 موضع بلا زمان في نفسي حيث يعود الماضي، فجأة، بكل
 امتلائه، أو باستمراريته. أنا هناك ثانية. أتصل مع ذات جد
 مدهشة بحيث لا أكاد أصدق أنها أنا. والامسُ تجربة أعرف أنها
 لي، فقط لأن حيويتها لا يمكن أن تكون إلا حيوية حياة مستردة.
 فالخيال غير قادر على أن يقدم للذهن، للحواس، شيئاً حقيقياً
 بهذه الشدة.

كل الناس، بالطبع، يخلفون طفولتهم وراءهم. هذا جزء من
 اكتشاف ذات جديدة في الرجولة. لكنني اعتقدُ أنني فعلتُ أكثر من
 الآخرين. إذ أن بساطة تلك السنوات المبكرة في "سالمو" لا
 تتناسب مع دوري الجديد، باعتباري ابن مدينة، وشاعر
 العاصمة المحنك، ولا شك في أنني سأشعر فقط بالقلق، وبمِنوع
 من الإشمئزاز، لو حاولت المصالحة بين الإثنين. وللأسبب نفسه،
 وجدّتُ من المؤلم أن أرى أبي، الذي ظل مستاءً مني - حتى بعد

شهرتي الأدبية التي كان من الممكن أن تعرّضه قليلاً عن إخفاقي في أن أكون رجل أعمال. تزوج ثانية، وصارت له عائلة أخرى. وسهّل عليّ، هذا أيضاً، أن أظل بعيداً. لقد عشت، بعد نهاية زواجي الثاني، كما لو أنني بزغتُ إلى العالم كاملاً مع ديوان قصائدي الأول، نمطاً جديداً بالتمام، مخلوق آرائي الصريحة، وبلا عائلة ورائي، لا عشيرة، لا وطن، لا ماضٍ من أي نوع.

والآن يعود إليّ كل شيء.

خاصة، وبمشاعر غاية في الرقة، كما لم أعرف منذ زمن طويل، حتّى أنني لا أستطيع الآن استعادة آخر وقت غمرتني فيه، أمسيات معينة من طفولتي المبكرة حين عهدَ بيّ وبأخي إلى نسوة المنزل، وخدم المزرعة، يغسلننا ويلبسننا للنوم، سوية مع أطفالهن، أولاداً وبنات، الذين هم في مثل سنّنا، والذين لا يزالون، في حينه (باعتبارنا لم نتعلم بعد أن نراهم عبيداً) لدائنا في اللعب في ساحة المزرعة وغياض الزيتون والبساتين الأبعد.

في المطبخ الكبير، المصفّح بالحجر، وتحت الدعامات، أحواضُ ماء دافئ وصابون، ونحن الأطفال، عشرة أو أكثر، نطرطش معاً، أو نجذب في برك على الأرضية، صارخين جميعاً، وهاربين، كلما برزت إحدى النسوة، اللواتي يحملن على أذرعهن مناشف بيضاً زاهية كبيرة، ويحاولن الإمساك بنا. إنه، لي، مشهد جمال ذهبي ونقاء. وأشعر بروحي مغسولة بمجرد تفكير في: الأجساد النظيفة العارية، المناشف البيض، والنسوة يضحكن، ويمددن أذرعهن العارية المبللة.

في أيام الحصاد هذه، كان يُسمح لنا بالنوم في الخارج، في بيت المزرعة مع مربيتنا. أما أمي المريضة، التي تعاني صداعاً من حمى القش، فقد لزمت غرفتها، ولن تظهر. أبي يخرج كل صباح مع الحاصدين، وإن كان العمل بعيداً في الجانب الآخر من الوادي فإنه يبيت الليل هناك مع العمال.

كنا ننام مع الآخرين، على حشيات قش واسعة خلف المطبخ، ونظل مستيقظين والنسوة يروين لنا حكايات عن أرواح الغابة، وعن شياطين أقدم من آلهتنا الرومانية، يعيشون في زوايا عجيبة من البيت والهُري، ويجب استرضائهم بقطع من العجين (إنّ يأتون طلباً له متكررين في هيئة جرد)، أو بأعشاب لا تعرف كيف تجمعها من أعالي التلال إلا أكبر النساء سنّاً، وأكثرهن حكمة. إنه عالم امرأة لن أعرفه ثانية. عالم له رائحة الرغوة والعجين، رائحة اللبن الخائر، والصوف الخام الذي أرى العجائز يمشطنه على جدار شرفة في الشمس، والحقول وراءهن خفقة أجنحة. في الصباح الباكر، قبيل الضوء، نخرج سوياً في فريق، نسوة وأطفالاً، إلى مروج الماء، لنجمع الفطر الكبير ذا اللون البرتقالي الأصفر. أنا أرقب النساء، ذوات الأقدام الحافية، يرفعن تنوراتهن في الندى بينما هنّ مقرفصات يبلنّ، عاليات الرؤوس تحت سلال القش. وفيما بعد، في طريق العودة، يبدون فضائحيات، حين يتوقفن في الحقل الحصيد، ليقدمن انحناءة ساخرة إلى فزاعات بريابوس الملطخة بالقرمز، والموضوعة في حقول القمح، كي تطرد الطيور. وحين نعود، ففي الساحة بيض ينبغي جمعه من تحت الدجاج وهي في القنّ الخشب، وخنازير

ينبغي إطعامها، وحبوب تنبغي تذريتها في الهواء بغربال. وفي
برد المطبخ، في المساء، فطائر دُخن لثُخن، وتفرك فيما بعد
بالقش، كي تتشبع بالعسل. ثم تهبط العتمة. ويأتي
الاستحمام.

أراقب ثانيةً. إحدى البنات وقد رفعت تنورتها عن ساقها
العاريتين، وذراعاها تلتمعان مبللتين، تقود أخي من دُكره،
وتطوف به حول الحوض مثل وزة، بينما النساء يرمين
رؤوسهن إلى وراء، ويضحكن، والأطفال يطرطشون الماء
ويصفقون، ويقذفون الرغوة في الهواء. وأعرف فجأة، بعد حوالي
خمسین عاماً من الحدث، أن تلك يجب أن تكون البنت التي ينام
أبي معها. أراها تقود أخي، الوارث الصغير لكل هذا العالم، حول
أرضية المطبخ المصوبنة، بينما النسوة يبدين اسنانهن فاغرة،
ويمسكن خواصرهن من الضحك.

إنه لمنظر في غاية البهجة، وأنا في مركزه، أفهمُ ربما لآخر مرة،
قليلاً من سره. إنه لعالم آخر. كم غريباً أن أجد نفسي عائداً
هناك للحظات عجيبة، عارفاً أنني لم أفعل شيئاً مهما كان
ليكشف لي آنذاك، وأنني سلكتُ سبيلاً مختلفاً في عالم الرجل، في
المدينة، والدولة، مثل ما سلك أخي أيضاً سبيلاً مختلفاً، إلى
الموت.

لكن الأغرب في الأمر أنه ظل طوال هذا الوقت، هناك، لم يلمس،
ولم يستعد، ظلّ جديداً، بهياً، وحقيقياً إلى حدٍ أنني لا أزال أستاف
شميمه، شميم النقاء الطري.

أفكر أيضاً، في هذه الساعات الهادئة، بموت أخي، وقت الباريليا،
تماماً بعد عيدي ميلادنا، اللذين يقعان في اليوم نفسه.

كنا على الدوام قريبين من بعضنا، مع أن مزاجينا مختلفان جداً،
فهو ذو ذهنية جادة، ومفعم بإحساس عميق بالولاء لأشياء،
لأبي، للمزرعة التي يعرف كل صُوئ الحدود فيها، للعائلة
المرتبطة وثيقاً بالبلد هنا، أراضي العشيرة القديمة، بليني، وأنه
لعميق التقوى، بحيث أحترمه لتقواه وأحسده، لكني، وقد أخذتُ،
مبكراً، دوري كشخص لعوب، كنت أفعل ما هو متوقعٌ مني،
فأسخر من تقواه.

يرقد مريضاً، أياماً، وهو عاجزٌ عن النطق. إنه في الثامنة عشرة
فقط. أجلس معه في الغرفة المتصلة بالباحة، حيث يرقد، متصببٌ
العرق، على سريرٍ نهاريّ، وهو فريسة ارتجافات باردة،
فمُحرقة. أقرأ له قليلاً، لكنه عاجزٌ عن المتابعة. أقرّبُ الماء من
شفتيه، وأحسُ بيدي ترتعش وهو يشرب. أنا أبكي، وأخجل
لبكائي. عندما حلّ يوم الباريليا، خرجت مثقل الفؤاد، أن
الغروب، لأؤدي الواجب الذي هو واجبه، أحسُ بعيون النساء
عليّ، وفي خطواتي عبر الحقول حيث النيران الصغيرة تشتعل في
الظلام، أعرفُ أنني لو سمحت لنفسي، حتى لحظة واحدة، بأن
أومن بالطقس الذي سوف أؤديه، كما يفعل هو، فإنني سأحلُّ
محله، وأجعله زائداً عن الحاجة، ما دمت سوف أطمئن الآلهة
(التي هي غير موجودة) على أنني هناك، لأحتلّ مكانه.

أرتقي، جاهداً، التلّ، من خلال العشب الأصفر، مُقوياً عزيمة،

مع أن هذا في الحق هو المهرجان الذي أحببته دائماً، منذ ذهب
أول مرة، على كتفي أبي، كي أرى النيران توقد، وظلال الرجال
تتقافز بين الذرة.

أنا أيضاً أعرف كل الصوى لحدود أرضنا، لكنها تعني لي شيئاً
مختلفاً. إنها حيث يبتديء العالم. وراءها روما، وكل العالم
المعروف الذي نحكمه نحن الرومانيون. خارجاً، وراء الصوى،
يبدأ السرّ. ذهني يغامر خارجاً، يلمس الجلاميد العتيقة المهترئة
مجلبةً للحظ، ثم يمضي في الظلام، مالتاً المجهول بما يجب أن
يُتخيل، ما دام عصياً على الرؤية.

أما أخي، فأعرف أن المزرعة، وذهنه، شيء واحد. الأحجار تتوهج
عند حدّ ما هيّته: هذه الحقول التي نُقّيت من حصباؤها ومُهدّت
مصاطب، شجرات الزيتون العتيقة ذات الجذوع المنتهشة عميقاً
بحيث تستطيع الاختباء فيها، كما تفعل أرواح الغابات، هذه
الكروم، والمناحل، ومنحدرات الذرة المتدفقة بالنور تحت القمر.
أسير خلال هذا كله، وأنا أحسُّ برؤوس العشب تمسح ساقَيَّ
العاريتين، وأبلغ الحقل حيث أبي ينتظر.

قد كان أدنى نوبة عمله، وهو الآن ينشف جسمه بقماشة، أقبله.
أترك أحد العبيد يُرخي قبائلي. أرشف من دلو الحليب. آخذُ بيدي
نبته الفاصولياء ورماد العجل. يغمس أبي غصنَ غار في الماء
ويرشني به. إنه يبيكي. صدري. حاجبي. تطرّف عيناَيَّ تحت
رذاذ القطرات الصغيرة.

أكوامُ التبن يجري إيقادها على طريق الحقل كله، من أجلي، كي

أقفز عليها، وبينما أنا أعدو وأطير فوق الكومة الأولى، شاعراً
باندفاعة الهواء في رثتي، شاعراً ببهجته، بالوثوب، بكوني
تطهرت، وجمعت في شبكة الأشياء، دخان القش، الأصيل المعتم،
طيور السبد المنطلقة نحو الحشرات بين الصنوبر، توائب النباتات
الفتية تحت.

أعرف أن الأمر قد حدث -لقد خلّفت حبة إيمان في كل هذا
المتبرعم في ذهني، وقتلته. أخى ميت. أحسُّ بالأمر، حقيقة، في
أطرافي وما اعترأها من وهن وأنا أستدير إلى البداية، وفي انقطاع
أنفاسي، وأنا أميلُ إلى الأمام، يداي على مؤخرتي، لاهثاً للهواء.
أشعرُ به، كالآثم، في اتقاد جسمي بعد التمرين. لقد عدوت موت
أخي. وعندما رشّوني ثانية بالغار، وشرعتُ أعود عبر الحقول
التي تعتم، وأنا أحسُّ بعرقني ينشف في النسيم، فإن الأمر، على
قدر علمي، قد حدث. أتوقفُ عند مدخل الساحة، وأنصتُ إلى أول
العويل من البيت، وأسمعها، أصوات النساء.

جالساً عند حدود الحقل في الظلام، أرخي صندلي، أعفّرُ كتفيَّ
ورجليَّ وشعري بالتراب، وأعرفُ بصورة مشوشة ما أنا مُقدّم
عليه. أنا أحاول أن أمسح التطهر الذي كان له، أنا أدفعُ كفارة
لحظتي من الإيمان. هكذا تحدث هذه الأشياء، عميقة في حيواتنا.
نحن لا نتحدث عنها. نحن نخفيها حتى عن أنفسنا، لكنها لا
تتركنا. ومهما سخرنا من التراب الذي جئنا منه، فإنه يغطينا،
نزحف عائدِين إليه، إلى تخنه على أطرافنا، إلى رمله في أفواهنا. لقد
قتلتُ شيئاً في تلك الليلة، وحاولتُ أن أغطيه بالتراب. أما الآن فهو
يصرخ في داخلي من جديد، وأجد نفسي راغباً في أن أكلّم أبي لو

استطعت، بعد غربة كل هذه السنين، وأخبره أنني وجدت طريق عودتي إلى تلك البلاد التي لن أراها ثانية، وأنني في بلدي. لقد اعترفت أخيراً بديونه المستحقة عليّ. أنا أعرف أين ولدتُ. ذلك يعود بذهنني، كما هو الأمر دائماً، إلى الطفل. ما بلده؟ ما نسبه؟ في أي لحظة جاء إلى العالم، وتحت أي علامة نجم؟ مع أي كوكب صاعد، وفي أي منزلة من منازل القمر؟ وإن كان يجهل هذه الأشياء، فهل باستطاعته أن يعرف من هو، وما سيكون قدره؟

أم أن عدم المعرفة يجعله حراً؟

هذه الأيام نخرج كل صباح، الطفل وأنا، لنتمرن على دروسنا في الهواء الطلق، حيث ليس بمقدور الولد ونسوة البيت سماعنا.

الولد يحمل الكرة الملونة التي صارت تعويذته، وأول ما امتلك بيننا، وهو لا يتخلّى عنها البتة. وفي المنام يتكور حولها. وحين يأكل يضعها في ثنية ركبته، وهو يجلس متربعاً، والطاس في حضنه، ممسكاً أخيراً، وبطريقة مضحكة، الملعقة الخشب التي علمته استعمالها. وعندما نتمشى خارج البيت يحمل الكرة بيده اليسرى.

أتجنب الأماكن التي قد تصادف فيها قوماً من القرية: نسوة يضربن ثيابهن على الحصا، أو ينشرنها على شجيرة العليق، ورجالاً يدفعون محارث ثيرانهم إلى الحقول الضيقة عند حدّ الحاجز الدفاعي حيث ينمو محصولنا الشحيح من الشوفان. أتجنب أيضاً الغيضة الصغيرة إلى الغرب، المقدسة لدى النسوة، حيث يضحون في منازل للقمر معينة، للآلهة هيكات، أحشاء كلب.

هكذا تتبقي فقط الأرض الناقعة باتجاه النهر.

أُخْلِعْ نعليّ (الطفل يمضي حافياً، وعارياً إلا من رداء فضفاض، سرعان ما يخلعه بمجرد ابتعادنا عن مرأى القرية) ونتوغل في الشجراء، إلى جزيرة معشوشبة يغطيها الشجر الخفيض والقليل من الشوفان البري، وهناك، كل صباح، مع طيور المستنقعات غير المرئية حولنا، زاعقة صائحة، أو متسلقة بصعوبة السماء الندية، ومع الضفادع وهي تنقّ، نبداً.

أنا أعلمُ الطفل الكلام.

وإنها لعمليةٌ عسيرة. كنت أكتشف منذ حين، في رحلاتنا معاً، أن باستطاعته محاكاة أي طير أو حيوان نصادفه، وهو يبتهج إذ يُريني كيف يستطيع أن يصفر مثل الصقور الكبيرة التي نراها بين حين وآخر طافيةً عالياً تحت السحاب، أو يطلق صوته: بكّ، بكّ، عند جذع شجرة مثل نقّاري الخشب في طفولتي، الأرواح المقدسة في ريفنا ريف «سالمو». يقف متباعد القدمين، يده على ردفه، ورأسه مرتدّ إلى وراء، مستقبلاً النور، شفتاه تتقلصان، وملامحه تتوتر لتغدو ملامح الطير الذي يحاكيه، لتغدو منقاراً، عُرفاً، لُغداً، كأنه يُطلع من جسمه الصوت المطلق للمخلوق، وبالتأكيد، في دخوله الحياة السرية للغته، يُصبحُ، للحظة، المخلوق نفسه، ولهذا يبدو لعينيّ أنه تحوّل في معجزة.

أحياناً يستخدم يديه آلة للصوت المرتعش، والمنساب، نافخاً عبر قبضته، ومفرقاً أصابعه. في أحيان أخرى، تنطلق الصرخة منه، ببساطة، عاليةً وصافيةً، أو يأتي اللحن من أعماق حلقه، غمغمّة

حجرية، أو يعطي جسمه، فجأة، قعقة معدنية، أجفلُ لقربها. كأن أي طير من أنواع الطيور المختلفة - الحمام، الغربان، الخواض، الطيور المهاجرة المحلقة عالياً والتي لا يعرف امرؤ في أي أفق كانت - تحيا في داخله، وبمقدوره أن يسحبها بنفس من بين شفتيه، كما لو كان لديه مدخلٌ إلى مكانها في الأعشاب، أو أنه كان معها في قاع النهر حيث تغوص طيور الماء إثر فرائسها، أو في أعالي الهواء حيث تعجز المخيلة عن متابعتها، وتعجز الأذن عن التقاط كيف تترجم صرخاتها عند حدود النجوم.

بعد أن لاحظتُ كيف يُصدر هذه الأصوات، وأصوات الضفادع والزيزان، والأرانب، والزمجرة الخفيضة للذئب ونباحها المخيف، توصلت إلى مفتاح، أخيراً، قد أتمكن بواسطته من تعليمه الكلام.

كاملٌ وجهه يلتوي بشكل مختلف عندما يحاكي صوت أي مخلوق. وإن كان يتكلم، دائماً، مثل ضفدع أو صقر أو ذئب، فإن عضلات حلقه وفكّه يجب أن تنمو لتناسب الصوت. إن بين المخلوقات والأصوات التي تصدرها علاقة حميمة، هي من العمق، بحيث أن المخلوق وصوته، واحد. ولذا، ينبغي أن يتعلم كيف يتواصل، من خلال أجهزة نطقه هو. ولو استطعت أن أبين له شكلها الطبيعي لأكتشف استعمالها. ولهذا السبب، عندما أصدرُ الأصوات التي أريدُ أن يحاكيها، والتي يجد صعوبةً بالغة في سحبها إلى شفتيه، عمدتُ إلى وضع أصابعه على حلقي كي يستطيع أن يسمع طنين صوتي هناك، أضغ أنامله على شفتي كي يستطيع أن يحسّ بشكلها، وبانسياب النفس. وتدرجاً، ومع

صوت واحد كل حين، نجد صوتاً بشرياً فيه. إنها لعبةٌ تبهجه. وهو مُتلهفٌ بصورة طفولية إلى أن يريني أنه قادرٌ على محاكاتي، كما يحاكي المخلوقات. بأنامله على شفتي، وحاجبيه المتغضنين، منصتاً، يكشف شكل شفتيه، والصوتُ ممتازٌ تقريباً. يرفع يديه عن حلقي، ويضعهما على حلقه، ويضحك مباشرةً حين يحسُّ أخيراً بالطنين ذاته هناك، ويسمع الصوت، مندهشاً أول الأمر، كأنه لم يعرف من أين جاء، ثم مبتهجاً، مُصدراً الصوت نفسه، مراراً وتكراراً، شاعراً بانتصاره، مع صيحات صغيرة.

بدأت أفهمه. فهو في محاكاة الطيور، ليس مثل مقلدنا، ينسخون شيئاً مبينين دقة أذانهم، أو كفاءة أجهزتهم الصوتية. فهو، باعتباره الطير، يسمح له بالكلام. خارجاً منه. ولهذا، حين يتعلم الأصوات التي يصدرها البشر، يبرأ نفسه بشراً.

الكلام جوهري، لقد اهتمت منذ البداية إلى الشيء الوحيد القادر على أن يبين له، أي نوع هو. وبإطلاقه تلك الأصوات الطنانة يكشف حنجرته. وبترنمه من خلال منخرية يدرك أن له أنفاً، وخلفه تجاويف يتردد فيها الصوت وهكذا، عن الشفتين، واللسان، والأسنان. وهو إذ يستكمل المدى الكامل للأصوات، فإنه يستكمل في رأسه صورة رأس، مثبتاً، ومعيداً التثبيت، بأنامله على حنجرتي، وفكي، وشفتي، من أنه مخلوق مثلي، وأنه إنسان.

لكن، أي رأسٍ ذلك الذي يبده خياله؟

ما الذي يمكنني، في النهاية، أن أوصله إلى تخيله، ومن ثم، إلى أن

يَكُونُهُ؟ ولو أني استكملت مختبر الأصوات كله، فأَي لُغَةٍ سأَعْلَمُه
إياها؟

في هذه الأثناء، نبدأ في مهارات يدوية بسيطة. أَعْلَمُه رمي الكرة
والإمساك بها. إنه سريعٌ في هذا، وفي كل المهارات الجسمية،
وسرعان ما شرع يدبّر لي حِيَلًا، عارفاً أني لستُ لِمَا حَ البصر، ولا
خفيف اليدين والقدمين، مثله. أَعْلَمُه رمي الرمح، ونظم الخيط في
الإبرة واستعمالها. وهو نفسه يحاول الإمساك بقلم والخربشة
به. والأغرب من هذا كله أنه تعلم الابتسام. ليس أن يضحك فقط
من لا مهاراتي وأنا أندفع وراء الكرة، لكن أن يبتسم، كما نفعل
نحن، بسبب حالة ما في نفسه، إضاءة مباغثة في روحه، بلا
موضوع ولا قضية. كما يتخذ في جولاتنا دور المعلم، مبيناً لي
مسارب في العشب، شارحاً بالإشارة أو بإيماء جسمه، أو
بمحاكاة الأصوات، أي طير أو حيوان فعل تلك. أو يجد تحت
جذع ملقى يرقانة أو خادرة، ويشرح لي بيديه كيف ستكون
فراشه، ممثلاً في نوع من الرقص، تحوّلها.

كل هذا العالم حيّ لديه. إنه منطلق معرفته، نوع من مكتبة
أشكال لاحظها واختزنها في ذاكرته، لغة أخرى يعرف أن يفسر
رموزها ويقرأها. وعيّه هو الذي يقودني في جولاتنا. العالم
يتخافق حولنا: إنه مناقع مائية، أضغاث عشب، جذوع مرمية،
أغصان. إنه مكتظ بالآلاف الأشكال المتغيرة التي تصرخ وتغني
وتخشخش وتطنّ، ويجب أن تكون ذهنه، مثل القصائد التي
حفظتها منذ زمن، مع أسماء آلاف الآلهة وخرافاتهما، وقواعد
البلاغة ونظرياتهما، وحقائق العلم، وحقائق التاريخ، ونظريات

الفلاسفة. الفرق أن العالم لديه عالمٌ مرئيٌ بمقدوره السير فيه، عالم له مناخاته وفصوله، ودورة حياته. إنه يُدخلني في وعيه. وهو ثمت تحت القدمين، وفي كل ما حولي.

كيف أستطيع أن أدخله في وعيي أنا؟

توصلتُ إلى قرار. اللغة التي سأعلمُ الطفل إياها، هي لغة هؤلاء القوم الذين جئتُ لأكون بينهم، وليسوا هم قومي. وباتخاذي هذا القرار، أعرفُ أنني اتخذتُ قراراً آخر: لن أعود إلى روما أبداً.

لا شك في أنني سأظل أكتب إلى زوجتي ومحامي. بل سأواصل التوجه إلى أوغسطس، أستجديه الصفح عن جرائمي، واستدعائي. ذلك لأن نصف حياتي أي المتوقع مني، الدراما التي يجب أن أمثلها حتى الاختتام. لكن في نصف حياتي الثاني، أعرفُ أنني لن أذهب إلى روما، حتى لو جاءت الرسالة. وفي الأسابيع الأخيرة، صرت أدرك، أكثر فأكثر، أن هذا المكان هو المصير الحقيقي الذي كنت أنشده، وأن حياتي هنا، مهما كانت مؤلمة، هي قدرتي الحقيقي الذي أمضيت وجودي كله في محاولة الإفلات منه. نحن بالكاد نتعرف على البشارة، حين تأتي، معلنة:

ها هي ذي الحياة التي حاولت أن تنبذ. ها هي ذي فرصتك الثانية. ها هوذا المصير الذي حاولت إبعاده باختلاق مائة دور مزيف، مائة هوية لنفسك مزيفة. قد يبدو للوهلة الأولى مثل الكارثة، لكن الحق أنه حظٌ حسنٌ متكرر، فالقدرُ أيضاً يعرف كيف يتتبع زوغاناتك من خلال ألف شكل له. الآن سوف تصبح أخيراً الشخص الذي قصدت أن تكون.

هكذا أعترف صراحةً لنفسي، بما عرفته طويلاً في قلبي. أنا أنتسب إلى هذا المكان الآن. لقد جعلته مكاني. أنا أدخل أبعاد نفسي.

كيف شرع هذا كله يحدث؟ الأمر لغزٌ لي. قد يبدأ أولاً، في أحلامنا. كائن ما، كنا أبعدناه عن ذهننا، ولم نسمح لأفكاره بالوصول إلى طرف لساننا، يتحرك، ويبدأ بطريقته يعمل فينا. حياةً كاملةً مخبأة، تندفق عائدةً إلى الوعي. هكذا بدأت طفولتي تعود إليّ. ليس كما تذكرتها سابقاً، لكن بشكل أصفى، كما كانت بالفعل، وهذا هو السبب في أن ماضي، إذ أستعيده الآن، يدهشني باستمرار. كأنه حدث لشخص سواي، وكأنني سلّمت ماضياً جديداً، يؤدي بي إذا تتبعته، إلى حاضرٍ أُخرج فيه من جسمي القديم، ذاتاً جديدةً أخرى.

الأمر هكذا أيضاً، في دروسي مع الطفل. عندما أحاول أن أبين ما أعرف، أتعثر فجأةً، بما لم أعرف، حتى تلك اللحظة. وفي بعض الأحيان يشدّ الأمر عليّ، بحيث يكون، هو، المعلم، وأن كل ما يجد في المناسبة يكون مستخرجاً، ببطءٍ، وألمٍ، مني.

نحن نتحرك في اتجاهين متعاكسين، أنا والطفل، وإن كنا في الدرب نفسه. هو لم يمسك بعدُ بروحه الفردية من الكون حوله. إن نفسه لتقع خارجةً، طاقته موزعة على الوحوش والطيور التي يشاركها حياتها، بين الورق والماء والعشب والغيم والرعْد - وهو في مكانه من وجودها، فهي تمسك، أي واحد منها، بجزيء من روحه. وليست لديه أي فكرة عن آخرية الأشياء.

أحاول أن أقذف نفسي في وعيه العالم، في وعيه إياي، لكنني أفشل.

ذهني لا يستطيع أن يحتويه. أحاولُ أن أتخيل السماء بكل مجموعات كواكبها، الكلب، الدب، التنين، وهكذا، امتداداً لنفسي، وجزءاً من كينونتي الأبعد، لكن معرفتي بأنها السماء، وبأن النجوم ذات أسماء وتاريخ، تمنع كينونتي السماء. يسقط المطر فأقول : هي تمطر: هي تمطر. ويقصف الرعد، فأقول : هي ترعد. الطفل مغاير. أحاول أن أفكر كما يجب أن يكون يفكر: أنا أمطرُ، أنا أرعدُ. فيباغتني الذعر، كأني إذ أفقد ذاتي المنفصلة الفردية، وأنفضُ آخرها من على طرف خنصري، فلسوف أجدني ضائعاً في تضاعف الأشياء، ولن أعود البتة إلى ما كنت فيه.

لكني أعرف الآن أن هذا هو الطريق. بطيئاً أبدأ المسح الأخير. يجب أن أطرِد نفسي القديمة، وأدخل الكون في. ستعود المخلوقات زاحفة لا محولة كالآلهة بالسحر، لكن كما هي نفسها. ذات منقار، ذات فراء، ذات ناب، ذات مقلب، ذات حافر، ذات خطم، وسوف تقيم فينا، مدخلة حيواتها القديمة في وعينا. وبعدها، النباتات، كما هي أيضاً، ثم نبدأ نستعيد في نفوسنا البحيرات، الأنهار، المحيطات، الأرض، سهولها، جروفها الغابية بمَواثب ثلجها. وقليلاً فقليلاً، السماء. إن روح الأشياء سيهاجر عائداً إلينا. وسنكون كلاً.

آنذاك فقط سيكون لنا تصورٌ عن جسمنا الحقيقي، باعتبارنا بشراً.

هكذا، يوماً بعد يوم، وأنا أعلمُ الطفل كيف يضع الأصوات مع

بعضها، ويكوّن كلمات كالتي يستعملها البشر، يعلمني هو أن
أصدر أصوات الطير والحيوان. في البداية، كان الأمر لعبة
سمحت بها كي أداعبه. وعيي لذاتي، وارتباك محاولاتي،
أضحكاه، وقد أبهجني هذا الأمر، البزوغ المبغت للطفل فيه، كما
أن فكرة قيامنا، معاً، باللعبة نفسها، سهّلت عليّ إبقائه داخل
المهمة الطويلة البطيئة الصعبة التي وضعته فيها.

لكنه في الواقع، المعلم الأجل صبراً. أراني الطير الذي أحاول أن
أحاكي صرخته. وجعلني أمسك به، مرتعشاً بين يديّ. أنا أعرف
مقصده. عليّ أن أتخيل نفسي في حياته. وبينما كان المخلوق
الصغير الناعم يرسل دفئه فيّ، أغلقت ذهني البشريّ، وأنا أحاول
أن أطلع منقاراً، أحاول أن أثبّ خارج نفسي، متحدياً ثقل لحمي،
وصلابة عظمي، وأتخيل ما هو الإنطلاق من العشب المبتلّ نحو
الغيوم. خرج من حنجرتي تزمير غريب، صرخات طير صغير.
شبكّ الطفل يديه، وأطلق الصوت نفسه، مشجعاً إياي، مقرباً
إياي منه، من السلم الموسيقي البسيط، كينونة الطير الفردية.
والحق أن كل يوم يجعلني أقرب. مرة، في الأيام الأولى لعزلتي،
ظننت أنني قد أتعلم الكتابة بلغة العناكب. أمّا الآن، والطفل دليلي،
فأنا في طريقي إلى ذلك.

أعرف الآن، أن اللغة الحقيقية، هي ذلك الكلام الصامت الذي
تواصلنا به، الطفل وأنا، في الغابة، حين كنت نائماً. إنها اللغة التي
استعملتها معي في طفولتي. وتجيتني ذكرى، مختبئة ثمت، لكن
غير مسموعة بوضوح، من أحاديثنا الرائعة، تجيتني ثانية عند

الطرف الأقصى للنوم، لغة يكاد لساني يعيد اكتشافها، وأعتقد أنها سوف تكشف لي أسرار الكون.

يبدأ الفصل يتغير. وحين نخرج هذه الأيام، إلى جزيرتنا في المستنقع، يتعين عليّ أن أتذكر أنقاء الريح، التي ظلت تهب من الشمال، منذ شهر، مع أن الطفل لا يزال يمضي عارياً، ويبدو محصناً ضد الريح والبرد. الظلال تتجمع من الشجّراء، أبكر فأبكر، كل يوم. الضوء رماديّ. والطيور التي كانت رفقتنا هناك تبدأ الرحيل أسراباً. وكل يوم نراها أقل في الغسق، ونحن عائدان عبر المشهد المائي المنبسط، نسمع الإوز، يضرب جنوباً، في أمواج عظيمة تشق سبيلها في السماء، مائلةً الأعالي بصيحاتها. الوحوش زحفت إلى باطن الأرض لتنام. أحسست بإبطاء في الطفل أيضاً، وأعتقدُ شيئاً ما، بأن سرّ بقائه الشتوي، سوف يُكتشف، أخيراً. ولسوف أجده ذات صباح، وقد نأى بنفسه في نوم أعمق، كذلك النوم الذي استغرق الأيام الثلاثة الأولى، بعد عثورنا عليه.

في هذه الأثناء تتحول القرية إلى حصن. الرجال في مجموعات، يرممون الحاجز الدفاعي. وآخر المحصول جُلب، وخُزن. والحظائر التي كانت مفتوحة وفارغة، طيلة الصيف، تملأ بالعلف، وفي بضعة أسابيع من الآن، سوف تُدخل إليها الماشية، الثيران، الأبقار، الحمير، الماعز، لتوضع في زرائبها تحت الغرف التي ننام فيها، وحين أهبط صباحاً ستكون أنفاسها الدافئة في

الظلمة هناك، ورائحة بولها، وصوت تمرغها وعلفها. الساحة ترتفع فيها أكداس الخُثُ المربّعة، والعربات موسوقة بأحمالها في الدروب بين الأكواخ، والرجال -الأطفال أنصاف العراة في الغالب- يصيحون ويحُثُّون الثيران كي تصعد التل عبر الوحل النقيع. نحن مهياؤون للإغلاق على أنفسنا في الداخل، ضد فرسان الشمال الذين سيظهرون، ثانيةً، بالتأكيد، حين يتجمد النهر، وضد الذئاب. في كل واحد منا هذا الشعور بالانسحاب في داخل أنفسنا، هذا الالتجاء إلى دَفء الجسم ونوره السريّ خارج البرد القادم، هذا الانتقال الأبعد في ذات عميقة ينبغي ألاّ يمسّها القُربُ المفروض علينا في شهور الشتاء هذه، حين تغلق البلدة أولاً، ثم بيوتنا، وباستثناء، خطفات الواجب على الأسوار، سنقضي الأيام والليالي على السواء، محتشدين معاً، فوق إحدى مدايق الخُثُ، في الغرفة المركزية الكبيرة، التي تعلو الحظيرة. الشتاء هنا هو زمن الاستياءات بطيئة التقاد، والشكوك، والأوهام التي تزداد مع دخول الأيام، أعمقَ في عتمة السنة، ومع اقترابنا من بعضنا أكثر، بسبب البرد، وفي الوقت نفسه، مع ابتعادنا أكثر.

أنا قلقٌ، على الطفل بخاصة. إذ عشنا، حتى الآن، منفصلين عن الأسرة في البيت الخارجي، منفصلين، لكن ليس تماماً، فالحديقة متصلة بغرف نوم البيت الرئيسية، لكننا قادرون، في الأقل، على الدخول والخروج كما نشاء، وعلى رؤية الآخرين أقل، بقدر ما يسمح به صِغَرُ مكاننا.

أدرك الآن، كم اعتزلتُ في الأسابيع الأخيرة، وكم جعلت من

حياتي مع الطفل، حدود عالمي المطلقة. الآن أوشك هذا كله أن ينتهي. فبيتي الخارجي الصغير سوف يسلم إلى العناكب. وبعد أسبوع من الثلج الأول، يدفن بالكامل. كيف سيتحمل الطفل وضعنا، محشورين في غرفة واحدة؟ هل سيكون مقبولاً من النساء والولد؟

أفضي بهواجسي إلى ريزاك الشيخ، ونحن جالسون في ضوء الباحة الأخير، نلعب بلوح خشب ومرميات. هو يربح كالعادة، محاولاً، بفمه المشدود إلى أسفل، وشاربيه اللذين يضربهما بإصبع قصير مكتنز، ألا يبدو معجباً بنفسه، مع أنني أسوأ من أن أتحداه في اللعب. يحاول أن يجد ما يحير حيث لا يوجد، يهز إصبعه عليّ، ويؤدي نقلته.

«لا لا، يا صديقي، يجب أن تثق بي. لن يزعجوا الولد».

لكنني غير مقتنع. وأميل إلى الاعتقاد بأن ريزاك، بالرغم من منصبه كشيخ للقرية، وبالرغم من ممارسته الهادئة لسلطته، فإنه يمتلك سيطرة على القرية أقل مما يريدني أن أعتقد، وسيطرة أقل، أيضاً، على البيت. إذ وراء امتياز الذكورة، المؤسس قانوناً، تكمن القوة المظلمة للمرأة. العجوز أمه، بخاصة، لها هيمنة غريبة عليه. إنه يصيح بها، ومرة أو مرتين، رأيتَه يضربها. لكن روحه تستخذي أمامها، وأنا أشعر بذلك. الكائنات القوية في هذا العالم، وريزاك يعرف ذلك، وفي منطقة مظلمة من الإيمان، هي شياطين أمه، الأرواح القديمة التي تغمغم لها بخفوت، والتي تضحى لها في ضوء القمر. وريزاك مذعور من

سحر أمه، كما هو مذعور من الشامان. كل ما يتمتع به، قوة العضل وسلطة القانون.

تظل العجوز معادية ومرتابة. أراقبُ شفيتها تتحركان. وهي تغرف لنا العصيدة في طاسات، وأتساءل إن كانت تكلم نفسها، حسب، أو تتمتع رُقى. شهرتها ذائعة في القرية باعتبارها صانعة سحريات، ونادراً ما يمر يوم بدون أن تزورها امرأة لتستشيرها حول علامة فراولة، أو شفة شرماء، أو عسر ولادة. بل لقد رأيت، في مناسبة أو اثنتين، شاباً يترصد، متمللاً، عند البوابة، وهو يستعد لتسليم نفسه إلى العالم الخطر لسحر النساء، باحثاً بلا شك، عن عقار حب، أو تعويذة ضد العفن الفطري، أو بَعْر حملانه المبكر. أحياناً نلمحها، وقد خرجنا إلى جزيرتنا، تجمع الأعشاب. في أجمة الإفسنتين، أو تقرأ رسائل خارج الأماكن المأهولة في حقل يشكل فيه العشب دوائر ليست من فعل حيوان أو إنسان. أعرفُ أنها تتجسس عليّ. وأظنها تعتقد أنني ساحرٌ خصمٌ—أهذا ما يعنيه الشاعر لديها؟—يستعمل الطفل ليصنع سحراً مختلفاً أكثر مضاءً. أما تمتعاتها على عصيدتها فتعني وسوسة النعمة خارج الحبوب، كي لا تجد أوراخنا غذاءً فيها. لكنها شديدة الحذر من ابنها، ولهذا لا تمارس السحر مباشرةً، ضدنا.

حليفها في هذا كله، هو الولد، لولو. أعرف أنه غيورٌ، لأنني استبدلتُ به، تلميذاً لي—مع أنني عرضت عليه، مراراً، العودة إلى دروسنا. وهو يرفض الاقتراب مني، ويدّعي جهاراً أن لا نفع

يرجى من اللغة اللاتينية أو الحساب البسيط الذي حاولت أن يتعلمه.

الشيخ يبدو في حالة يُرثى لها. فهو من ناحية، يريد لحفيده أن يكتسب هذه المنجزات، وهو من ناحية أخرى، وبسبب كبريائه، لا يسمح بأي إشارة إلى عجزه. يتوسل إليّ، صامتاً، وملامحه الجلدية مغضنة في تعبير اعتذار تهريجي، وكرامة مهانة مستسلمة، ألا أشعر بالإهانة بسبب طيش الولد، وأن أتعاطف، إن استطعت، مع صعوبته. يقول لـ «لولو» إنه جلف، ويصفع أذنه، لكن بلطف، مع إحياء بأنه حين اختار الجلافة، ظلّ وفيّاً لقومه، وبخاصة، لجده، غير المتمدن، لكن، غير الجلف. الولد يتقبل الصفعة، كما قُصدَ بها، مبتسماً ابتسامةً فاخرةً باتجاهي، ويغادر تياًهاً.

ريزاك يهز رأسه، ويمطّ فمه، ويريني راحتيه. العجوز، وقد تمتعت بتبرير ممتاز، تطلق صيحة انتصار، وتمضي لتعدّ نقيع أعشاب بالماء المغليّ، ثم تقدمه في تهذيب لثيم، مبالغ، حتى اضطر ريزاك إلى القول إن الشاي لا يمكن شربه، وإلى التطويع بالطاسات ومحتوياتها في الساحة.

فقط، أم الولد، هي أكثر طيبةً من أن تتحول ضدي بالكامل. لقد اعتبرني دائماً، أحقّ نوعاً ما، عليها أن تتساهل مع ضعفه الذكوري. ويعود عطفها المداعب إلى أيامي الأولى هنا، حين حاولت أن تعلمني أسماء البذور التي كانت تفرزها، وبما أنها تخاف العجوز، فهي فرحة بحضوري، لأنني شوكةٌ في جنب

الحيزبون، هي التي جاءت بالماء إلى نباتاتي الصغيرة، وأعترفُ بأنه عملٌ تخريبيٌّ من جانب امرأةٍ تعيش أيضاً في هذا البيت، بفضل تسامحٍ قلبي، وترى فيَّ شبيهاً لها.

هي تنتسب إلى قرية نائية، كما أنها من رَسٍّ مختلف. سيطرتها الحقيقية الوحيدة على هذا البيت، وقد ماتَ زوجها، هي من خلال ابنها. والحق أن هذا كان سيحدث، لو لم يكن ريزاك شغوفاً بها. ولا شك في أن العجوز تعتبر هذا علامةً أخرى ضده، واحدةً من تلك النواعم الصغيرة التي توهن بنية الأشياء.

وقد يكون ضعفاً مماثلاً ذاك الذي جعل المرأة الشابة، بالرغم من تحذيرات العجوز، وخوفها هي، تأتي أحياناً، وتمد يدها لتلمس الطفل، وهو منحني على إحدى مشاغله. بنعومة، وللحظة فقط، مدفوعةً بالفضول، أو الرقة، أو بهاجس ما للاتصال بأي قوة كامنة فيه مهما كانت -تلمس شعره، وتُرجع إلى الوراء، لحظةً أحسَّ بيدها. لكن في تلك اللحظة، مهما كانت خاطفة، كانت النظرة على وجهيهما رائعة.

أريد أن أقول، فقط، إن حيواتنا هنا، حتى في الانفصال، مَوَّارةٌ بالتوتر. والشتاء قد بدأ للتو.

طوال هذا اليوم، كان ذلك السكون المتميز في الهواء، ذلك الضوء المريض الضارب إلى الخضرة الذي يعد بالثلج. غيومٌ هائلة متخثرة فوق البحر. والحيوانات التي أُدخلت في الحظيرة، قلقة

عند مَرابطها، ترفس وتنفض، أو تغيّر وجهتها، سويةً. الطفل أيضاً كان راغباً في الانصراف إلى مهماتنا. ومثل أي ولد في سنه، يمكن أن يكون صعباً، وهو يرصد الأعداء باستمرار - جناح رفراف في المستنقع، يرقّة ترحف على جذع - كي يحول انتباهي. لكن الأمر مختلفٌ اليوم. عضلاته كلها ظلت متوترة، يقظة، كأنه سمع وقع خطوة في العشب وراءنا، وهو عاجز عن أن يجعل ذهنه يستقر على الأشياء، ومرة أو مرتين ينفجر مزاجه بصورة هيئّة، ويبعد يدي، نافذ الصبر، ويشمخ برأسه كأن اللغة التي أحاول تعليمه إياها كانت تغلق الطريق على لغة أخرى يجب أن تكون أذناه جد مرهفتين لالتقاطها.

هو في الغالب مدوّزنٌ هكذا لتقلبات الجو. بمقدوره أن يستاف بدلاً في الريح، ساعات قبل أن يُعرّشَ النَّفسُ الأول البحر، أو يرفع عشب المستنقع. أراه يجلس، فجأةً، منتصباً في الباحة، يرفع رأسه، كما في حضور مباغت، ويعرف أن في الخارج ستتمايل الأعشاب، في الهبة الباردة الأولى للريح الجديدة، أو أن أولى خطفات البرق ستلعب في البعيد، على خط السماء الشمالي.

لكن الثلج سقط اليوم، وقد كنا نتوقعه منذ أسابيع ثلاثة تقريباً. الرجال في الحصن يقومون بالاستعدادات الأخيرة. على امتداد البطيحة الرمادية يختلج السكون، كأنّ وترأ قد أُرِنَ. كل شيء يدندن حنوناً.

في وقت ما، بين منتصف الليل والفجر، أيقظني ضوء غريب في

الغرفة، زرقه غير طبيعية، تنبض، ليست البتة مثل ضوء القمر.
الباب إلى الكوخ مفتوح، وموضعُ الطفل في الركن فارغ. نهضت
سريعاً، وداهمني الخوف.

لكنه لم يكن هرب. في كل انبهار الضوء الآتي من الثلج الذي كان
يسقط، لا محالة، منذ ساعات، فهو عميق، يقف عارياً في الباحة
(ينام عارياً، حتى الآن، بينما بقيتُنا تتدثر بالفراء) ويبدو لي أنه لا
يزال نائماً—إن له نظرة الغشية البعيدة التي يتسم بها السائرون
في نومهم، الذين حتى لو مروا بك، في ممر، أو على سلّم، يبدوون
بعيدين غير قابلين للمس، كأنهم كانوا يتحركون في عالم آخر،
حاضر، في أن، منفصل عن عالمنا، لكن ليس بجدران، إنه يقف
منتصباً ساكناً، وجهه مرفوع إلى السماء الزرقاء زرقه ساطعة،
ليس زرقه الليل ولا النهار، زرقه تغني، إنها صافية جداً، طاهرة
جداً، وهكذا لونها بالمطلق.

إنه يقف هكذا، ساكناً، في البرد، والضوء يصّاعد من الثلج، قرابة
ساعة. أنا أيضاً مرتعبٌ من إيقاظه. حين بدأت أولى الرقائق
تسقط ثانيةً فتح فمه لها، وفرك وجهه، وكتفه، و صدره، ثم رفع
يديه ورأسه عالياً، كي يسقط الضوء مباشرةً عليها.

أصدرُ صوتاً خفيضاً، تحريك قدمين، ربما، فأنا أيضاً كنت أقف
ساكناً في البرد، خائفاً من أن أتحرك كي لا أربكه.

يستدير ويستيقظ فجأة. يبتسم. يطلق صيحة. ويشعر يتقافز
على الثلج، قاذفاً بحفلات منه إلى الهواء. يبدو أنه لا يشعر بالبرد.
جسمه محافظٌ على لونه، يداه وقدماه ليست متقلصة. وعندما

جاء مندفعاً إليّ مع قبضة من الثلج المسحوق، شعرت بالدفع الذي يشعّه، جسده يتقد، إنه قُرن. أراني الثلج، كأنه شيء من عالمه الخاص ذلك الذي لم أكن رأيتُه، قط.

لكنني حين أحاول إعادته إلى الغرفة، يقاوم. لم أعرفه يوماً عنيداً فجأة، هكذا. أرتكبُ خطأ الإصرار. فيهجم عليّ. باصقاً. ممزقاً قبائي، ويركض إلى سور الحاجز الدفاعي، يخمش اللوح الطري محاولاً تسلّقه. وحين أحاول أن أهدئه يدفعني عنه، ويبدأ يعوي.

إنه العواء القديم من أيامه في الغابة. إنه يعوي، خامشاً السور مثل حيوان، باصقاً كلما اقتربتُ، مكشراً عن أسنانه، متوتر أظافر اليدين كالمخالب. خلفي، النسوة، وريزك ينظر مذعوراً. والولد النعسان، يفتح عينيه واسعتين، كأن إحدى حكايات الشيخ القديمة جاءت، فجأة، حيّة في الباحة.

أنا على حافة الدمع. لا شيء يمكن عمله. أنتظر، مع ريزك، الطفل يُنْهك نفسه. تهاوى أخيراً عند السور، مدمى الأظافر، وأحسستُ بالشفقة عليه، وبشعور بالذنب، مفاجيء رهيب، لكنني لا أستطيع أن أُلْسه. كل هذه الأسابيع كنت أتبع خطتي للطفل، ولم أفكر لحظة به، إلا مخلوقاً طوع إرادتي، هيأةً في حلمي. الآن، وهو يركع في الثلج، عاوياً، ممزقاً وجهه بأظافره، أمتلكُ تصوراً لانفصاله المطلق الذي يُرهبنِي. ليس لدي أي فكرة عن الألم الذي يعانيه، وأي إحساس عميق بالفقدان والحرمان تعبر عنه صرخاته. أخيراً، حين هدا العواء، وانحسرَ في نحيب واهنٍ

وطفوليّ، حملناه إلى حشيتّه، وتمددت لصقه، والباب مغلق، في الظلام، حتى أنامه النحيب.

يبدو في الصباح، أنه لا يذكر شيئاً مما جرى في الليل. إنه يراقبني من الزاوية، ألف فراشي، وأجمع لوازم كتابتي، موساي والطاس، أنهياً لمدة فصل، بُغية ترك هذا المكان، أي مكاني -مكاننا- إلى الغرفة المشتركة فوق الحظيرة. أطمئنّه بالإشارات على أنني لن أغادر بدونه، وأشجعه على جمع حاجياته. كما هي: الرداء الخشن الذي يرفض ارتدائه، كرتة الملونة. لكنه يبدو عاجزاً عن الاستيقاظ الكامل. يراقبني وأنا أكنس الغرفة، وأقول وداعاً للعناكب، ثم أردُ الباب ورأني.

في نهاية الأسبوع سوف يدفن الثلج كوخنا، وبعد ذلك، حين يتجمد، لن يكون بالمستطاع دخوله، إلا من خلال السقف. وبطيئاً، مع ممتلكاتنا كلها، نصعد السلم داخل الحظيرة، إلى الغرفة العليا.

4

حلمنا الشتوي يبدأ.

سنتي الخامسة في هذا المكان، وما زلتُ لم أَلْفُه. يأتي يوم ويمضي آخر، والضوء الرمادي هو نفسه على المستنقعات. تتلجج. تتجمد. تتلجج ثانية، الريح تهبّ مستمرةً من السهوب. الهواء داخل غرفتنا كثيف بدخان الخُبّ الذي يحترق تحتنا. النوافذ تظل مغلقة معظم الوقت اتقاء الريح، ويمكن فتحها فقط في تلك الأيام الغريبة الساكنة ذات الصقيع المطلق حين تتحول السماء زرقاء جليدية، والعالم كله يحبس أنفاسه، ويلتجمع أزرق، ذهبياً، أبيض، كما لو أننا دخلنا، فجأة، في أرض جديدة. وإلا فإننا نتكوم هنا، في نصف العتمة، ننصت إلى الريح تصفر في العشيّات، ننفض كتلاً من الثلج في صوت ثقيل، ننصت إلى المصاريع الخشب تقرقع وبلورات الثلج تصلصل، ونحكي أنفسنا من الهبّات التي تجد طريقها إلى الداخل مثيرة دوامات صغيرة في الهواء المثقل بالدخان. أكتبُ في ضوء شمعة خَفَاقَة، وعليّ أن أحميها بكفي المكورة كي لا تطفئها دفقةً مباغتةً. أنامُ طويلاً، ربما بسبب ثقل الهواء، أو بطء الدم في البرد الشديد، وربما بسبب الضجر، لكنني أجدني أنوسُ برأسي في ساعات ما من اليوم، وأبدو دائماً نعسان مثقل الرأس، وأتساءل، كم ساعة من اليوم أقضيها نصف نائم، نصف حالم؟ أثنتي عشرة ساعة؟ خمس عشرة؟

الأيام المتماثلة، تمر سريعة، وتمضي إلى النسيان المطلق، كالليالي. أسبوعٌ يمرّ، ثلاثة أسابيع، خمسة. فإن لم يحز المرء عددها على عصاه، أو يدونه في رِقِّ، فإنه لا يكاد يعرف أنها جاءت وانصرفت.

أنا أقيس الأسابيع بعدد نوبات الحراسة التي أؤديها. كل ليلة من خمس أخرج أربع ساعات لأحرس السور، أخطو صاعداً هابطاً على متراس خشب، تماماً تحت القمة المدببة الأعمدة للحاجز الدفاعي، مع عشرين رجلاً. في الليالي الصافية تكون الدنيا جميلة:

القمر مرتفع بين الغيوم، وبطائح النهر مزرقّة، يتخللها ظلّ ثقيل، الريف كله مفتوح إلى مدى ما تراه العين، على امتداد الطريق إلى النهر. في مثل هذه الحراسات تستطيع أن ترى الذئب تتحرك في جماعات على الثلج، وبإمكانك سماع عواثها إذا كان السكون كافياً. أحياناً يأتي ذئبٌ وحيدٌ عند السور تماماً، ومرة أو مرتين تظهر مجموعة كاملة، مكشّرة عن أنيابها، مالئة الهواء بعويلها، حين تشم رائحة الحيوانات في مرابطها. والثيران والحمير إذ تسمع عواءها، تطلق بدورها خوارها ونهيقها المضطربين. لكننا في معظم الليالي لا نقوم إلا بالخطو، صاعدين وهابطين في الضباب المدوم حولنا مثل بحر، نتحرك كالعميان، ويدٌ واحدةٌ ممتدةٌ أمامنا، على الممشى الضيق. هكذا تكون الساعات الأربع مثل نوع آخر من النوم. لا شيء تتركز عليه العين، وكل صوت خامد. إنه لنوم رمادي، بلا أحلام، يوجع الركبتين، ويضيّق الجمجمة، وأعاني صعوبة كبرى في منع نفسي من الوقوع في نوم حقيقي، وبالتالي من السقوط إثني عشر متراً في الوحل المتجمد.

في هذه الأثناء، سقط الطفل في حالة اللامبالاة، فهو يجلس ساعات لا يفعل إلا التحديق في الظلام. كوعاه حول ركبتيه، وحنكه هابطاً على قبضتيه المضمومتين. لا يزال يتسارع في لحظات. متلعباً رأسه لهبوب الريح ثانياً بعد توقّف، أو متشمماً

فجأة حين تتحرك الغيوم الثلجية فوقنا، وفي فترات السكون المضيء، حين يمكن فتح النوافذ، يغدو مجنوناً بالفرح، يثب على عقبه عند حافة النافذة، مُصدراً أصوات أُنات صغيرة، مثل جرو أطلق من مقوده. لكنه، في الفترات الطويلة، حين نكون محتبسين، بسبب الضباب أو الثلج، أو قسوة الصقيع، يغرق ثانية في كآبته القديمة، التي لا يقدر أن يخرجها منها شيء. يأكل حين يوضع الطعام أمامه. لكنه لا يهتم الآن بألعابنا الكلامية، وأخشى أنه سوف ينسى معظم ما تعلمناه. حين حاولت مرة أن أعيد صلته بإطلاقي صحيحة كان علمني إياها، أصابته هستريا شديدة. كل ما فعلته محاولتي الخائبة من صحة الطير أنها ذكرته بمكان في المستنقع الذي لم نزره، منذ ثلاثة أشهر أو أكثر، وأنا أدرك، متألماً، أنه لا يفهم، ولا يمكنه أن يفهم، لماذا لم نعد نذهب إلى هناك، ولماذا انتهت ألعابنا. أعتقد أنني أعاقبه؟

في ليلة صافية، حين فتحنا النوافذ، حاول أن ينقذف خارجاً، لكن كان عليّ أن أتصارع معه، عند حافة النافذة، بينما هو يرفض ويطلق صرخات حيوانية حادة، أقنعت العجوز ثانية بأنه ليس طفلاً، بل هو وحش متكرر شقّ طريقه بيننا.

العجوز تراقبه دائماً، مرتعبة كما أعتقد، من أنه قد يمسك شيئاً، وعاءً ما، وبذلك يكتسب السيطرة على مستعملي الوعاء. والحق أنه في ساعاته المديدة من مجرد الجلوس، والتحديث أمامه، لا يبدو، بأي حال، طفلاً طبيعياً، وحين يهتمهم في حلقه، أو يئن، أو يعوي قليلاً في ألمه، أبدأ حتى أنا أتساءل عما إذا كان روح حيوان ما، يعود بين حين وآخر، زاحفاً فيه، روح أسعفه هناك في غابة

الشتاء. لقد ظل حياً، آنذاك. فهل يستطيع أن يظل حياً الآن؟ أراقبه ينسحب أكثر، كل يوم، إلى مسافة غير مرئية، إلى وِجَارٍ سرِّيٍّ، تهجع فيه روحه، فلا يمكن أن تُستدعى.

أنظر إليه أحياناً، فتتكون لديّ فكرة واضحة عما يفعل. إنه يرى نفسه في الحلم، خارجاً، في عراء الشتاء. وإني لأراه، برهةً قصيرةً، يتحرك على الثلج الناعم بين أشجار البتولا، يعلك سيور اللحاء، ويركع ليقْتَلَعُ أشنةً. ألمس كتفه فلا يشعر بشيء. العيناان السوداوان غائرتان في محجريهما، تنظران عبري، إلى حقول الجليد الباهرة تحت الريح. وعندما يتسارع، لتغير في الجو، فإنما لتغير، كما أرى، في المشهد الذي يتحرك عبره، في رأسه، ولو أنني فكرت أننا قد نجدّه ثانيةً في الربيع، إذاً لأطلقته. لكن هذا مستحيل. إذ لا عودة بعد أن جثتُ به بيننا. إنه يفقد، فعلياً، في دفء هذه الغرفة قدرته على مقاومة البرد. ومنذ أسابيع تدنُّ، مثلنا، بغطاء جلديٍّ. سوف يتجمد هناك في الخارج. لقد انتزعتُ منه سرّه، مهّما كان هذا السرّ. إنه الآن ضعيف المقاومة، معرّضٌ مثلنا، وهو يُظهر في ذلك، على الأقل - حتى لو كانت العجوز لا تراه - أنه بشرٌ، أخيراً.

وكبرهان على ما كنت أدركته للتوّ، أصيبَ الطفلُ بالحمّى. هو جالسٌ، كعادته، صاحباً ركبتيه إلى أعلى، ومحدّقاً، وفجأةً رأيته ينطرح، ويتمدد مغشياً عليه، لكنه استيقظ حين اقتربتُ لأغطيه، وبدأ، مباشرةً، يرتجف. قطرات عرق كبيرة انبجستُ من جبينه، حتى صار شعره يَقطرُ، وجسمه كله يتفصّدُ عرقاً. وبين فترات

الاحترق، يتجمد. أعتقد أنه لم يعرف، قط، من قبل، ما يعني أن تبرد. كامل جسمه يُطبق على هذا الإحساس الجديد، هذا الاكتشاف داخل نفسه عما يعنيه الشتاء، وما معنى أن يكون ثلجٌ وجليد، وشعور المرء بأنه يدخل ملكوتاً من البرد المطلق، ذلك العالم القطبي في تخوم الجسد. سحب ركبتيه إلى أعلى، منغلِقاً على نفسه. توترت كل عضلة في أطرافه وكتفيه ورقبته، وأطبقت كفَّاه، وانطبق فكَّاه. إنه يبدو مرتعباً، وعندما بدأت الخضَّات، كان عليّ أن أمسك به، مقحماً قبضة سكين بين أسنانه، بينما هو يختض، ويتصلَّب، ويدخل في سلسلة كاملة من التشنجات، ثم يسقط منهكاً، في نوم همود. العرقُ ثانيةٌ. وحين رفعته بين ذراعيّ، وحاولت إقحام بضغ قطرات ماء بين شفتيه، تذكرت أخي، وأدركت من يعني لي هذا الطفل، وما يعني لي أن أفقده.

العجوز تراقب من الطرف الآخر للغرفة. أعرف ما تفكرُ فيه. هذه ليست حمى عادية. الطفل يتصارع مع شيطانه، الروح الحيوانية الذي حماه هناك في الغابة، والذي يُصارع الآن ليعود. وإذا أُستنجدُ بها، طالباً دواءً ما. بعض الأعشاب التي تجمعها وتصنع منها جرعات، تهزُّ رأسها، وتدير إبهامها إلى أسفل، وهي تبصق. كان عليّ أن أمسك بالطفل ليل نهار. لو فكرتُ حتى للحظة، بأن الروح قد تنصهر وتدخل جسم الطفل ثانية، لقطعتُ عنقها. أنا أعرف ذلك.

لكن المرأة الشابة، ذات الطفل، والقلب الحنون، لا تستطيع أن تتحمل رؤية الطفل يذوي، ويعرق، ويرتجف، ويختض تحت الأغطية. تأتي لي، سرّاً، بطعام له، وماءٍ نظيف.

أسمعُ العجوز تنازعها، وأعرف ماذا تقول. ماذا لو تخطى الطفل عن الصراع، ووجدنا أنفسنا حبيسين هنا مع الذئب الأبيض العملاق، الذي هو عشيره، والذي قد يفلح في أي لحظة، في ملك جسم الطفل، ثم في الخروج منه، وهي تعتقد أن الحمى جزءٌ من التحول المؤلم. دم الطفل يغلي ويتجمد، كأنه يتغير قطرةً قطرة. معدة الطفل تنكمش طلباً للحم النييء، طعام الذئب اليومي. وأطرافه تتوتر لتكون مخالِب. وفكاه تطبقان على الأنياب التي تنمو. وماذا لو لم يكن ذئباً في النهاية؟ بل وحشاً آخر، أضخم وأرهب مما يمكن أن تتخيله حتى هي.

المرأة الشابة تجبُن، وأرى شكاً جديداً قد بُذر في ذهنها. ماذا لو صُعِبَ على الوحش قهر الطفل، فاختار جسم ابنها، بدلاً؟ سيكون الأمر في غاية السهولة. بينما نحن نائمون جميعاً، وأجسامنا فارغة في الظلام، تنسلُّ روح الطفل خارجةً، وتقطع الغرفة، وتدخل جسم ابنها - وهكذا يتمُّ الأمر! ليومين كاملين ترفض المرأة الشابة الاقتراب منا. إنها تراقب الطفل، تراقب ابنها، تُبقي الولد بعيداً عن زاويتنا من الغرفة قدر المستطاع، بينما تهمس العجوز، وتخفق بيننا.

لكن في الليل البهيم، حين تبلغ حمى الطفل أزمتهَا، وأُضطرُّ إلى طلب المعونة، فالمرأة الشابة هي التي تتحرك في الظلام، وتلتفُّ بعاءتها، وتأتي بالماء. أنا متعبٌ جداً، ومنهك. وبعد خمسة أيام تقريباً من المراقبة، أبداً دائماً على حافة الدمع. يداي ترتعشان كثيراً بحيث لا أستطيع أن أرفع الطاس إلى شفتي الطفل.

تتناوله مني. تركع. ترفع رأس الولد، تاركه إياه يعبُّ البرودة، وعندما تعيد رأسه إلى مكانه من كومة الخرق التي كنت جعلتها وسادة، تجلس مروحة عليه، بينما أستريح أنا، لحظة، مستنداً إلى الحائط، وأنا م عندما أستفيقُ ثانية، أراها لا تزال ثمت، ووجهها فقط يتبدى من طيات العباءة. تجلس بانتصاب كامل. يدها تتحرك وراء وأماماً لتعمل نسمة. تحني رأسها، مشيرة إلى أن باستطاعتي النوم ثانية، وعلى الفور أسقط من جديد في أعماق جسمي.

في الضوء الصباحي الأول، المتسلل عبر شقوق النافذة، أستيقظ لأجدها تمسك الطفل في إحدى نوباته. تبدو خائفة، وأنا أعرف أن هذه هي اللحظة الحقيقية للأزمة. وأعرف أيضاً ما تخافه.

جسم الطفل يختصّ، يرتخي، أطرافه تطير، فكاه ينطبقان ويفتحان، أصوات حيوانية غريبة تخرج منهما. أسمع الآخرين يتحركون، وأرى العجوز تخرج من الظلام لتراقب، والولد ينهض نعلان خلفها. الطفل ينخر، وتخرج زمجرات خفيضة من حنجرته. لسانه يدور، ويسيل اللعاب من زاوية فمه. شفتاه تتحركان.

وفجأة، وبكل وضوح بحيث سمعناها جميعاً - أنا، والمرأة الشابة التي تشهق بغتة، وتدفعه عنها، والعجوز التي تطلق عواءً - واضحة، من شفتيه، وسط كل زمجرة الألم الحيواني وأنيبه، تجيء كلمة، واحدة من الكلمات التي كنت أحاول تعليمه إياها كل هذه الأسابيع. لقد اكتشفها أخيراً في هذيانه. وقد صعدت إلى

سطح ذهنه. لقد اكتشف لسانه كيف يُصدرها.

إنها كلمة عادية تماماً، وليست ذات أهمية. كلمة شائعة من حياة هؤلاء الناس اليومية. لكن التأثير كان فورياً عليهم. ومن فرط فرحي باكتشافه إنسانيته أخيراً، أفضّلُ في معرفة ما أنذرهم. المرأة الشابة تنهار أرضاً، وتبدأ تتراجع. العجوز تمُدُّ يداً لتأخذها، واليد الأخرى خلفها ممسكة بالولد. التصقتا معاً والولد بينهما، يحدق، بينما أصدُّ نظري من الأرضية إلى جانب الطفل، عاجزاً، لحظتها، عن الفهم.

إنه ما توقعته العجوز. في أعماق حماء، وعند نقطة الأزمة، اختطف الطفل روحاً أخرى. والدليلُ على هذا، نطقه المفاجيء هكذا، كلمةً في لغتهم.

إلى الولد «لولو» تستديران الآن، فهو الذي تكلم، دون أن يعرف، من فم الطفل. العجوز تبدأ فوراً، تُعولُ عليه، شاتمةً المرأة الشابة التي هجرت ابنها، لتعتني بمتطفلٍ، وإن اعتنت به حتى الأزمة، أمكنت الشيطان، من أن يسرق، ولو للحظة فقط، روح ابنها. المرأة الشابة لا تنبس بكلمة، خوفاً. تترنح على الأسل، ممسكةً ببطنها، تصدر غماغم من حلقها بلا كلمات، كأنها توشك أن تمرض. الولد يشرع يئن، والعجوز تمزّق عنه ثيابه بحثاً في جسمه عن علامات، إشارات، موضع ربما دخل الشيطان منه. بعد ساعة، حين عاد ريزاك من واجب الحراسة، كانت الغرفة تغلي. المرأتان كلتاها في هستيريا، والولد ممددٌ على حشية، يَعرِّق

مع الهجمة الأولى للحمى، بينما الطفل، وقد انتهت أزمته أخيراً، يتنفس هادئاً وينام.

ذهني في دوامة من هذا كله.

في أي لحظة تالية قد يغمرني الفرح لما قد حدث. الطفل تكلم أخيراً. في هذيانه اكتشف الكلام البشري. لقد اتخذت الخطوة الأولى التي سوف تؤدي به، لا محالة، إلى عالم البشر. لو أن هذا حدث قبل ستة أسابيع أو سبعة، هناك في المستنقعات، لتهللت فرحاً، أنا الآن أعني، فقط، الخطر الذي وضع نفسه فيه. تلك الكلمة الأولى، التي طلعت من أعماق نفسه في النوم، بينما كان ذهنه، روحه، بعيدين جداً في الثلج العميق لغابته، تلك الكلمة قد تدمره.

إنه لا يحس بأي خطر. تنفّسه يأتي ناعماً بين شفتيه وهو ينام. لكن الخطر حقيقي، وأنا لا أجروء على تركه، ولا أسمع لنفسي، أن أسقط، حتى للحظة، في جوع جسمي أنا إلى الراحة.

المرأتان في زاويتيها المقابلة، مشغولتين الآن إلى حد أنهما لا تعيراننا انتباهاً، تُعولان على جسم الولد، الذي يمكن سماع أنينه، خافتاً، بين انقطاعات عواثهما. إنه في المراحل الأولى للمرض نفسه الذي أصاب الطفل. أنا أعرف الأعراض. كيف أصيب بالمرض؟

تتبادر إلى ذهني نظرة الذعر على وجه الولد، الرعب من حضور شيء مجهول، بينما كانت يدا العجوز تمزقان ثيابه، باحثتين في جسمه عن علامة انتهاك. هل أخذ المرض

آنذاك؟ مصاباً بخوفهما، وجاعلاً إياه خوفه؟

من يدري بأي وسائل غامضة يسير الجسم إلى نهاياته؟

قبل سنين، وفي رحلاتي بأسيا الصغرى، جئتُ إلى مدينة حلّ بها الطاعون. صدمتني آنذاك، العشوائية التي كان يتقدم بها الوباء، كيف يظهر في بيت، مُقنياً كل ساكنيه، إلا طفلاً واحداً يظل معافى. ثم يقفز بيتين ليختار ضحية أخرى. وصرتُ أعتقدُ، حينها، بالفكرة القائلة: إن كان الطاعون نفسه، يتحرك مثل سحابة فوق المدينة، فلا بد أيضاً من وجود ظل للطاعون يحيا في الجسم أو في الذهن. ولا يندلع المرض إلا إذا التقى الإثنين، وعرف أحدهما الآخر. وإلا كيف تفسرُ أن شخصاً يصاب بالمرض، والآخر، الجالس إلى جانبه، أو النائم في الفراش نفسه، لا يصاب؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك الظل الذي ينام في الجسم، سوى الخوف؟ الرعب هو الصلة. يتفصّد الجسمُ عرقَ الخوف، وفي رطوبة ذلك العرق، يبدأ الطاعون ينتشر، كل قطرة تتحول وتغدو عرقاً حمىً. وما يبدأ في الذهن يعمل الآن في الجسم. وهكذا، مرةً، رأيتُ المرض يُنقل في المسرح. كان ممثل شهير في أنطاكية يصور الألم الأخير للبطل الذي أصابته حمى مميتة بعد أن أهان الآلهة، وقد أدى الممثل دوره بمهارة فائقة، مؤثراً تأثيراً شديداً في أذهان الجمهور، باستعادته الممتازة، الاحتراق، والاختناق، وبرحاء المرض، حتى أن نفرأ من المشاهدين، أصيبوا بالمرض نفسه، بسبب رعبهم وإثمهم، وسقطوا عن مقاعدهم متفصّدين عرقاً، فتعيّن حملهم إلى خارج المسرح. لقد انطبع ما شاهدوه، في أذهانهم، بحيث أن مجرد التظاهر بالمرض، في جسم الممثل،

تواصل مع أجسامهم، وصار حقيقة. إن روح الممثل، في تخيلها المرض، أثّرت بقوة في أرواحهم، بحيث سمحت للمرض بالدخول، ففاضت سمومه، فوراً، في عروقهم.

أهكذا تنتشر مثل هذه الحمّيات؟ أهكذا كانت عدوى الولد؟ لا من خلال رغبة الطفل في تحرير نفسه ودفع المرض عنه، وإنما من خلال الخوف، محمولاً في ذهن أمه، ومطبوعاً في ذهنه هو بسبب زعر العجوز المفاجيء، ومعبراً عن نفسه، فوراً، عرقاً، وناراً، ونوبات يعانيها الآن. إن نقطة العدوى كانت لحظة مدّت العجوز يدها لتلمس المرأة الشابة حين أجفّلت مرتعبة من كلام الطفل، واستدارت صارخة نحو الطفل النعسان خلفها. في هذه الصدمة الأولى لصرخة العجوز، أخذَ المرضُ، وانفتح جسمه ليتلقّاه من يديها، عبر يدي الأم، من الطفل. خارجاً من أذهانهم داخلاً في ذهنه. مع أن العجوز تعتقد، وأوحت بذلك إلى المرأة الشابة، أن روح الطفل فعلت هذا كله، خبئاً. أمّ الولد هي التي نقلت المرض، من خلال ضعفها وشفقتها. وهي عندما تحولت للعناية بالطفل أسلمت حياة ابنها إليه. وسمحت لروح الموت بالمرور بينهما.

وهكذا، ساعة بعد ساعة، يغرق الولد «لولو» أعمق في هذيان الحمّى، صارخاً، متمتماً، مطلقاً من بين شفّتيه صرخات الأنين والزمجرة الحيوانية التي كان الطفل ملأ بها الغرفة طيلة الأسبوع الفائت، متصارعاً، كما تعتقد المرأتان، مع ذلك الروح الحيواني نفسه، الذي سوف يستعمله ثانيةً ليدخل بيننا.

في هذه الأثناء كان الطفل، وهو لا يدري بهذا كله، يزداد قوة.

اليوم جلس، أضعف من أن يسند نفسه، لكنه قوي بما يكفي لأن يأكل. إنه يبتسم. حتى ريزاك يراقب تماثل الطفل إلى الشفاء بعينين ضيقتين، وإني لأرى فيه خوفاً حقيقياً مما يمكن أن يكون الطفل سبباً لهم، مع أنه مثل المرأتين، أشد قلقاً وتمزقاً بالحزن إزاء معاناة حفيده، من أن يفعل أكثر من التحديق والحيرة. مشاعره متعلقة تماماً بالشخص الشاحب الصغير الممدد على الأسل، وهو يعصر يده في نوبة بعد نوبة بينما الحمى تنتقل في مراحلها بين النار والجليد. فقط حين تأخذ منه الحمى مأخذها تتحول صدمة الشيخ إلى استياء منا وغضب. لخمسـة أيام وليال يجلس على الأرض بجانب الطفل، منحني الكتفين، متجهماً الوجه، يبتلّ خداه بالدموع حين يثنّ الولد. أعرف ما يشعر به، لكني لا أستطيع أن أبدي له إشارة. أحاول أن أجعل نفسي غير مرئي هنا، وأخذ الطفل معي. المرأة الشابة، أم الولد، هي أشد ذهولاً الآن، وانصعاقاً بالحزن والشعور بالذنب، من أن تفعل أكثر من الجلوس مغطاة الرأس، محدقة في الولد، متمنية له أن يعود إلى الحياة. العجوز هي التي تهتم به. أعرف، لو أن الطفل مات، فسوف تنفجر كل هذه المشاعر المحيطة بنا، في عمل عنيف ولن أستطيع آنذاك أن أفعل أي شيء، حفاظاً على الطفل، وعليّ أنا.

أنتظرُ، نصف نائم، اللحظة حين ستأتي - صرخة الغضب الشنيعة التي سوف تخترق الشيخ وتجعله يهجم علينا، والعنف الذي يخض الولد الآن، سيندفع هائجاً من خلال جسم الشيخ ليوجه ضربته إلينا، إلى الطفل أولاً، ثم إليّ، لو حاولت حمايته.

لكن، وفي مثل المعجزة، تمرّ الليلة الخامسة، وينجو الولد. ومع

الصباح سمعتُ العجوز تُطلق اصوات قَرَقتها الصغيرة، مكلمة الولد، كما لو كان يستطيع السمع أخيراً، وموقظةً ريزاك الذي كان شبه نائم، متهدل الرأس، مع انه في الجلوس يظل منتصب الجسم. أمُّ الولد تقف، بطيئاً، على قدميها، ناهضة من موضعها عند الجدار، حيث كانت منبوذةً لخمسة أيام. يشبك ريزاك يديه ويطلق هتافات ارتياح عالية، ساخراً من الولد، ربما لما سببه لهم من قلق شديد، ويأتي على الفور، إلى وسط الغرفة، مبتسماً ابتسامةً عريضة وملوحاً بيده لي. لقد ذهب كل غضبه واستيائه. يقطع الغرفة إلى النافذة، ويرفع الرتاج. ضوءٌ ساطع يغمر الغرفة. إنه احد تلك الأيام البيض الصافية، حين يكون الريف كله مرثياً، يلتمع، أبيض، تحت سماء زرقاء. كان الاندفاع المفاجيء للهواء البارد في الغرفة رائعاً.

ريزاك يتمطى، يطلق هتافاً ثانياً، ويمد ذراعيه واسعتين إلى السماء، ثم يعود مترنحاً إلى الغرفة، يتمدد على كومة من الأسل هي فراشه، ثم يسقط، فوراً، في أول نوم حقيقي عَرفه منذ اسبوع. أمُّ الولد تنام أيضاً، متمددة على الأرض بجانبه. العجوز فقط، التي لا تتعب، تظل تنعق على الولد، مقدّمةً له فُتاتاً من صحن، ضاحكةً مع نفسها بين وقت وآخر، بل مناديةً إيائي، مرةً أو اثنتين بالرغم من أنني لا أعرف ما تقول في دَرِّها.

لقد مضى الخطر. تخطّيناه. فجأةً تذكرتُ كم أنا متعبٌ. غمرتني موجة كبرى، وبدون أن أزحف حتى ثلاثة أقدام إلى فراش الأسَل، تركت نفسي أغرقُ ثانيةً تحت فيض الضوء الآتي من النافذة، وأنام.

نحن الآن عبرنا الأسوأ. الانقلاب الشتوي جاء منذ وقت طويل، ومضى. وقد دخل ظلام أحلك وقت في السنة، وبلغ نهايته، والأرض تميل بعيداً نحو النور من جديد، وأحسُّ بمعنوياتي ترتفع مع تطاول الأيام. والآن، تفتح فترات الجو المنير الهاديء، الريف كله أمام عيوننا، البحر يلتصق، وأوائل الطيور تعود. وفي الليالي الهادئة، يمكن سماع جليد النهر، وهو ينطحن في الظلام. بل أننا نستطيع أخيراً الشروع في التنقل حول البيت. أهبطُ مع الطفل إلى الحظيرة، ونجلس هناك مع الحيوانات، نسمعها تجار وتنخر في نصف العتمة، متحركة، مجترّة، متبرزة أكوام روثها متصاعد البخار، الذي يعطي المكان رائحة حريفة، تبدو أفضل من الهواء العطن في الغرفة العليا، ونحسُّ بدفئها وهي تلتئم مع بعضها عند مَرباطها. بدأت الحيوانات تفقد هدوءها، مستافّة الربيع. بعد اسبوعين أو ثلاثة من الآن، حين يُزاح الجليد، سوف تؤخذ ثانيةً إلى الحقول. كل يوم يشغل الرجال، كاسرين ممّرات في الجليد، جارين بعيداً أقدام الثلج التي تغلق الدروب الضيقة بين الأكواخ، منظفين الباحات كي يمكن الوصول إلى البيوت الخارجية من جديد.

حتى بيتي الصغير بدأ يظهر فوق مستوى الثلج. وسرعان ما سنكون قادرين على الانتقال عائدين إلى هناك، أنا والطفل، ولسوف تستأنف حياتنا القديمة. ثم، بعد شهر أو نحوه، سوف نعود إلى جزيرتنا في المستنقع، إلى الطيور والفراشات ويسروعات الربيع، وإلى الحروف الساكنة، وحروف العلة، التي كاد الطفل ينسى معظمها، إذ مرَّ زمنٌ طويلٌ على مراجعاتنا لها، مع أي وقد

نطق بكلمة أخيراً، أعرفُ أن بالإمكان العثور عليها هناك في قاع
ذهنه، أعرفُ أنه في جزءٍ سرّيٍّ من كينونته، أعمق حتى من النوم،
بدأ يتكلم مع نفسه، وبالتالي سوف يتكلم معي، يوماً ما.

نحن ننزل كل يوم إلى الحظيرة، لأن الغرفة نفسها لم تعد
محتملة. نحن هناك للعذاب فقط. لأن ريزاك مسؤول عني،
حسبٌ.

سلطته على البيت اهتزت عميقاً، بسبب أحداث الأسابيع الأخيرة.
فالعجوز هي التي تتحكم، إذ أن سحرها هو الذي أنقذ الولد - هذا
ما تخبره - وأن ثقته الحمقاء، وشفقة المرأة الشابة، هما اللتان
عرّضتاهم جميعاً للخراب. والولد هو حفيده الوحيد. وريزاك
يراقبه الآن بشعور متسارع بأن الولد عرضةٌ، كما هو عرضةٌ
للزوال. وصار يدرك أيضاً أن قوة ذراعيه لا تستطيع أن تفعل
الكثير، مثل ما لم تستطع، في لحظة الأزمة. كأنما وجدت العجوز
سبيلها أخيراً إلى تسميم روحه، واسترداد قوته الرجولية التي
وهبته إياها يوماً، والتي كانت طوال هذه السنين كلها مصدر
تفوّقه عليها. وهناك لحظات يبدو فيها طفلاً بين يديها. وأن المرء
ليميّز في وجه العجوز عداءً حقيقياً لهذا الرجل ذي الستين الذي
كان سيّدها طويلاً، والذي كان في ما مضى رضيعاً، وتحت
سيطرتها تماماً. ويختلط مع العداء شعورٌ جديد بالانتصار.
البيت ممتليء بتوهج سحرها، رائحة أعشابها، جراتها
وصلواتها اللامنتهية ذات العبارات المرتعشة.

عندما يكتمل البدر سوف تقدم أضحى في غيضة النساء خارج

القرية، مقدّمة الشكر، لحياة الولد. يخرج ريزاك وحده ليأتي بالضحية، جَرو برّي، سوف تحرق أحشاؤه على مذبح من الخُث، وتقدّم إلى هيّكات الثلاثية. توسل الولد كي يذهب معه، لكنه رفض. سوف يؤخذ الجرو من بين الكلاب البرية، الهجينة-الذئبية، التي تجوس في مجموعات، خلال منخفض الشجيرات بظاهر القرية، والتي تطعم، باعتبارها مقدسة أيضاً، الفُتات، أحياناً، من المتاريس. إنها مخلوقات هزيلة لونها رمادي-أسود، وكلها أضلاع، وتتقاتل، منقضة في أكوام على قطع اللحم والشحم الزنخ، ثم تنسل إلى الدغل.

يعود ريزاك بالجرو في سلّة قصب صغيرة. ولعشرة أيام، حتى اكتمال البدر، ظل يعوي في زاوية الغرفة، مصدر عذاب حقيقي للطفل. استيقظ في الظلام، لاسمع بكاء ناعماً ظننته بكاء الطفل نفسه، لكنني أجده منحنيّاً على السلّة في الظلام، مجيباً صرخات الحيوان بأنات صغيرة حادة. وقد واجهت صعوبة كبرى في إعادته إلى حشيتّه. وطوال الوقت كنت أحسّ بالعجز، منتصبّة المجلس في زاويتها، وأتخيل ابتسامتها الخفية.

هل يعرف الطفل، المقصود؟ وهل جاءته العجوز بال مخلوق الصغير إلى هنا، عمداً، ومبكراً، فقط لتكون هذا الاتصال بين الإثنين: الطفل وضحيّتها الحيوانية؟ هل الطقس الذي تنهياً له، رقية ضد الطفل، أكثر مما هو تقديم شكر لحياة الولد؟

مع اقتراب الموعد، يغدو الطفل مهتاجاً أكثر فأكثر، حتى لقد خشيت أن يسقط ثانية في حمّاه. إن نائمة من الجرو تجعله

يرتجف الآن، فإن منعته الذهاب إلى السلّة أجاب المخلوق من بعيد، مُصدراً كل سلسلة أصوات الأنين، التي يطلقها الجرو، فتضحك العجوز رأساً، ضحكتها التي تشبه النعيق. هل يحسّ الحيوان بما سيحدث؟ هل أوصل هذا إلى الطفل؟ أم أن الطفل منزعجٌ ولسبب بسيط هو وجود حضور في الغرفة لروح صغير، شيء هو غير حضورنا البشري؟ أم أنه أحسّ في كُرْبَةِ الحيوان فقد أنه هو حرّيته؟ أم أنه التآلق المتزايد للقمر ليلة بعد ليلة؟ منذ أسبوع والجو صاف، ونحن ننام تاركين النوافذ مفتوحة، وضوء القمر الذي يدخل الغرفة يمنح أشياءها المألوفة زرقاً شبحيّة، ضوء القمر إذ يضرب الثلج، مكوّناً ظلالاً كثيفة تكاد تُلمسُ باليد.

أخيراً حلت الليلة.

المرأتان تخرجان بعد طلوع القمر مباشرة، مصطحبتين الولد، وريزك يحمل السلّة إلى بوابة الباحة، ثم يتسلق السلم عائداً، ويقترح عليّ إحدى لعباتنا باللوح والمرميات.

من النافذة، أراقب موكب العجوز، وهو يمضي في الدرب الضيق، وتنضمّ إليه أخريات في مسيرته. نساء القرية، كلهن، سوف يجتمعن أخيراً في الغيضة ولا يُسمح لأي رجل برؤية طقوسهن. إنها لشعائر القمر، تعود إلى عالم سلطة المرأة، وعبادة المرأة، وهي أقدم وأكثر غموضاً من عالم الرجال.

يبدو ريزاك، ونحن نلعب، غير مرتاح. وقد كسبت اللعب. المرأتان تعودان صامتتين، ولا تزالان ملتفتين بقوتهما التي منحها القمر،

مهما كانت، هذه القوة التي تتسلط شهرياً على دفق جسميهما، تكبر، وتنحسر، وترعرع على العتمة، محوِّلة كل هذه الأشياء التي نعرفها في ضوء النهار، بنوره الأكثر نعومةً وغموضاً. ريزاك ينسحب إلى حشيتّه، على الفور تقريباً، وبدون كلام. صمتهما يضطهده. أمّا الطفل الذي لم يقم بأي حركة منذ أخذَ الجرو من الغرفة، فهو يجلس في زاويته، منحنيّاً، غارقاً في إحدى انجذابات جسمه، ويرفض أن ينام. أحسّ طوال الليل بغربة تخيم علينا، بتغير قد يكون سببه البدر، أو أنه منبعث من يقظة الطفل الحاملة، أو من العجوز، فقد ظلت طوال الليل جالسةً، متّسعة العينين، لا ترى، والبدر يسقط عليها، مغلفاً قوّته عميقةً فيها، تُطلق بين حين وآخر تنهّداً كبيرة، كأن مخلوقاً أقوى كان يتنفس من خلالها بانتظام.

في الصباح، كان في الغرفة نفس أكثر غرابةً وحدّةً.

لقد أصيب ريزاك في الليلة الفائتة بمرض ما، ليس كالمرض الذي أصاب الطفلين. جسمه، ملتويّاً، وجائشاً في نوبات عنيفة، يتعذب، وينشف، ويفيض. وإذا تفحصه العجوز ترى هناك تلك العلامة ذاتها التي توقعت أن تجدها، نصف دائرة من آثار أسنان صغيرة على رسغه، مندملة الآن تقريباً - إنه ألجرح الذي دخل منه الوحش. تُطلق العجوز صرخة حادّة، وترمي يديها في الهواء، وتبدأ مباشرةً، العويل على الميت.

هذا ما كانت طقوسها، الباردة، تريد أن تتفاداه. ولقد أخفقت الطقوس. وبعد هذا كله، لم يكن الولد هو المهّد، لكنه الشيخ. كان

مرض الطفل تحويل انتباهه. الآن، تكتشف، حقاً، أن الطفل هو الذي أنزل شره بهم. لقد تركه الروح الحيواني أخيراً، ودخل في الشيخ الذي تخرج من شفثيه نقط بيض كالزبد الذي يطلقه حصان أرهقه الركوب الشديد. الهدير والزئير الحيوانيان اللذان ينفجران منه، يكاد الشعْر يقف منهما، بينما هو يزوي ساعة بعد ساعة، وثمت بقبقة في حلقه، ودمدمة لم أسمعها من قبل، وتبدو بعيدة قروناً عن الكلام البشري. وبين هذه الفترات من السعار، يتصلّب، أطرافه كلها تتوتر ضد ما يخرج من خلاله، الوحش الذي يولد فيه، طالباً أطرافه الأربعة المشعّرة، وخطمه ذا الأنياب، وفكيه المطبقين على اللحم النييء للأشياء. النهاية محتومة، وواضحة هكذا منذ اللحظة الأولى لظهور الشر. حتى أنا أرى ذلك. الأمر مثل كابوس، كأننا انجرفنا جميعاً، وفجأة، في دراما جسمه، في عمليتها الرهيبة، نقل طاقته البشرية إلى شكل حيواني. للكابوس قوة دفعه الذاتية، وقد أخذنا معه كأننا كنا مشاركين فجأة في الحلم نفسه، مستيقظين سوية في نومنا لنكتشف أن الغرفة أمست قفصاً، وأن الهواء ذاته كان عنصراً حيوانياً نتقاسم نفسه، نتانته هي نتانتنا، ودمدماته هي محاولتنا الخائفة لأن نصرخ ونصدم أنفسنا ناهضين.

استدعي الشامان، لكنه أيضاً أقرّ بهزيمته. نظرة واحدة إلى الوجه الرمادي الذئبي للشيخ ويجفّل مرتعباً يهزّ رأسه، ويهرب مع سحره قبل أن تنتقل إليه هو أيضاً، العدو.

جرى هذا كله، مفاجئاً، وكاملاً، إلى حد أننا بقينا مذهولين،

عاجزين عن إعادة أنفسنا إلى الواقع. ولخمسـة أيام يستمر الصخب. روح الشيخ تُصارع وتتلوى، كأنَّ قوَّته لا تُنْهك. وعندما تحاول المرأة الشابّة أن تبلل شفتيه بالماء، تصدر منه اختناقٌ رهيبـة. تصرخ العجوز إنّه الوحش يحاول قول اسمه -الوحش المجهول الذي أُرْضِعَ الطفل كل هذه السنين، وتركه الآن، يولد من جديد، في الشيخ.

يهدأ الشيخ أخيراً، في اليوم الخامس. السكون المبالغت بعد ساعات السُّعَار تلك، سكونٌ مربعٌ. نحن نحبس أنفاسنا.

إنه ليس ميتاً. نحن نعرف ذلك من ارتفاع أضلاعه وانخفاضها، لكن الوحش الآن، في لعبة جديدة. عينا العجوز تجوسان، باحثين عن نفّس هواء ما يتحرك حولنا، كي يكشف حضوره، وكأنه يمشي في الغرفة على أربع، هكذا كنا نحسّ، مع اقشعرار جلدنا، ولمس فروه علينا وهو يمرّ. لكن لا صوت. لا حركة. شهيقنا وزفيرنا فقط. الطفل يتشبّث بي، ويبدو كأنه يوشك أن يدخل في إحدى نوباته. عينا العجوز تظلان تجوسان في الغرفة، ويدها مائلتان في الهواء، منشورتـي الأصابع. الدقائق تمرّ. الساعات. نحن متجمدون. أشد رعباً من أن نتحرك.

البقية أيضاً جرت كأنها في حلم: نقلّنا من الغرفة، دخول الرجال الذين سيقودون روح ريزاك خارج البيت، فراري مع الطفل من خلال السقف، وهبوطي في عتمة بيتي الصيفي، المحاصر بالثلوج، حيث أستطيع الإنصات منه، إلى ما يحدث في الباحة.

نسوة القرية، أو من يمكن أن يتحشد منهنّ بين أسيجة الحسيكة،
تجمعن هناك كي يطردن الأرواح الغريبة، المترصدة خلف حدود
المنزل بالضبط، لتخطف روح الشيخ، وهي تعبر في الهواء، إنهن
جالسات على الثلج، متدثرات بعباءاتهن، ومنقبات، بحيث لا تبدو
إلا عيونهن، يتمايلن أماماً ووراءً، على عجيزاتهن، ويقرعن معاً،
بصوت موحد يصمّ الآذان، الأحجار المقدسة التي انتقيت من
قاع النهر، لبياضها ونعومتها، والتي لا تُستعمل إلا لهذا
الغرض، كي تصمّ آذان الأشرار عن صرخات الشيخ، وهكذا فإن
الصرخة الأخيرة، صرخة الموت، سوف تمر بدون أن ينتبه إليها
أحد، فتتسل روحه في الليل.

يبدأ القرع، سلسلة من الانفجارات الحادة، تملأ فراغاتها بعويل
مرتفع وثلاث صرخات مثل صرخات الصقر. وعندما تتسارع
الوتيرة يغدو القرع غير منتظم. لكن، مهما كان الوقع غير مألوف
عند الآذان الأجنبية، فإن كل الأحجار تهوي في وقت واحد،
وعندما ينفث الإيقاع على تعاقب متزايد، تشرع الأصوات في أوم،
أوم، أوم رتيب، ويتكرر المقطع الأصلي الواحد، باستمرار، كأن
الأرض نفسها تتكلم من صدع ذي عدة أفواه.

في طاسات فخار صغيرة حول الباحة، يتصاعد دخان أعشاب، لم
أسمّه من قبل. دخان يدخل المنخرين فيدوخ المرء. بياض
الجدران، سواد الأشكال الذي ملأ كل مكان، الأيدي المائة
المتحركة في آن، اللحن الرتيب، قرقة الحصى - هذا كله يخلق
نبضاً في الرأس، يهدد الحواس، ثم يخمدّها. أجد نفسي مجلوباً

إلى اتساع الضوء وانكماشه، إلى الأصوات وهي تضرب أذني،
 كأنني في دوزنة نفسي، ونبض قلبي، لهذه الإيقاعات، كنت
 أُسحبُ، ببطءٍ، وأُفردُ وأنكرُ، مُنفصلاً عن نفسي، وعن إرادتي
 الفردية.

في أعلى البيت، يقام احتفالٌ أخيرٌ غير مسموح لنا برؤيته، ويُقصدُ
 بفوضى الأصوات هذه، التغطية عليه. أنا أعرف ما هو. حكماءُ
 القرية يجهزون على حياة ريزاك بالقوة، يضربون ويهزون
 النفس الأخير، ليخرجوه من جسده القوي العتيق، كي يموت
 ريزاك مُقاتلاً. أما انحطاطه إلى حالة من الضعف الطفولي فسوف
 يجعله عرضةً للشياطين التي تحوم هناك في الظلام، لتخطف
 روحه بعيداً. إنه ليُضرى حتى الموت. بهذه الطريقة فقط يمكن
 رفع روحه المحتضرة إلى هذه الدرجة من العنف، حتى يجبن أهل
 الظلام إزاءها، فيمكن لريزاك أن يعبر، بلا مضايقة، إلى الهواء.

هذه العملية تستمر، ربما، لساعة. وفي النهاية، يبرز أحد الشيوخ
 عند نافذة، ويرفع ذراعيه. وعلى الفور يخيم الصمت. الأيدي
 تتوقف في منتصف الحركة، والطنين ينقطع. العجوز فقط، أم
 ريزاك، تطلق صرخة طويلة، نغمة منفردة تحافظ عليها حتى
 انقطاع نفسها، ثم تتلقفها أخرى أصغر سنًا، ويستمررن هكذا،
 يطلقن الصرخة، يمضين معها، ويتبدلن. بينما في داخل البيت،
 يشرع الرجال يرقصون، يدقون الألواح الخشبية بكعوب
 جزماتهم. إنه السهر. سيظل شيوخ القرية يرقصون ويشربون
 الشراب المخمر حتى يسقط آخرهم في زهول كالميت. ويترنحون،
 ضاحكين، متفكهين مع بعضهم، كأن موتاً لم يكن، وهم

يخرجون من البيت، إلى الثلج، حيث يبولون عند جدار، سكارى إلى حد أن منهم من لا يستطيع الوقوف على قدميه وحده، فيتعين عليه أن يسند نفسه بيد، ويحاول باليد الأخرى أن يرخي سرواله. شياطين الهواء أيضاً موضوع هذا كله. الشيوخ يحولون انتباه الشياطين، وفي هذه الأثناء يشق أحدهم طريقه إلى أرض المدفن، هناك على الهضبة العالية. قد تكون روحه وصلت، وهي تدور راکبة، الدائرة الكبرى في الظلام. وبعد يومين، سوف يحملون الجسم إلى الخارج كي ينضم إلى الروح. الآن، تتكاكأ النسوة على الثلج، وينتظرن. وبعد أن يسقط آخر الراقصين، سوف يزحفن إلى داخل البيت، وينقلن الرجل الميت، حتى يمكن غسله وتهيئته للخوزقة.

في خضم هذا كله، وضُحَ لديّ ما يجب أن أفعله. مع موت ريزاك، وبهذه الصورة، لم تعد لنا حماية هنا، أنا والطفل. لقد نسونا في هذا الوقت. طقوس الموت، والانشغال بالشياطين المنتظرة، سمحت لنا بالتسلل بعيداً. فيما بعد، فقط، حين يكون آخر الطقوس قد تمّ، سيفكر أحدهم -ربما العجوز- بالانتقام، ويتذكر أن الطفل هو الذي سبّب كل هذا، وإيائي، أنا عشيره، العارف أو غير العارف.

أوقظُ الطفل قبيل الفجر. المراتان الآن ناعستان، ملتمتان بعباءتيهما، ورأساهما مغطّيان، ومن السهل الانسلاخ حولهما، والخروج إلى الرزاق.

الطفل لا يزال نصف نائم، لكننا إذ نبلغ حدّ المناقع والجسر إلى

جزيرتنا بين القصب، يمسك فجأة بيدي، ويضحك، ويثب وثبةً صغيرة، ويحاول أن يسحبني نحوها. هو يعتقد أننا بعد حوالي أربعة شهور نوشك أن نعود، أخيراً، إلى حياتنا السالفة، إلى دروسنا اليومية في المستنقع، إلى نداءات الطيور، إلى محاولاته المرتبكة في أجهزة حلقه، بُغيةً نُطق الحروف الساكنة وحروف العلّة، هذه المختبئة هناك منذ زمن طويل، والتي أحاول أن أساعده في العثور عليها. وقد استاء حين جعلته يفهم أننا سنمضي في سبيلنا.

إنه يبدو فظاً، يمسّ شفّته السفلى، ويضرب صدري بقبضته المضمومة - ليس بشدّة، لكن تعبيراً عن استيائه مني. يشيح بوجهه عني، ويشرع يئنّ. ضوءٌ شاحبٌ يغمر المستنقع كله، بمخاضاته ذات الماء الأسن، وأكوام الثلج المزرقة تحت ضوء القمر. القصب يُصدر حفيفاً. والقمر ينزلق داخل الغيوم وخارجها. الطفل يحنّ إلى ضوءه في الأرض الصلدة الآمنة خلفنا، وعليّ أن أمسك بقبائه، وأخيراً، بيده، لأقوده. ربما أنذره شيء ما في تصرّفي، أن الأمر ليس لعباً، وأن رفضي دخول الحياة السالفة ليس محض رغبة مني. هو يتبعني، متباطئاً قليلاً، ونمضي عبر المناقع نحو النهر، الذي أعرف أنه يقع في مكان ما، شمالاً، على مبعده يومين أو ثلاثة، سيراً على الأقدام، مخترقين أرضاً يثقل فيها السير، إلا أننا لن نخلف عليها أثاراً لاجتيازنا.

خطّتي أن نعبّر النهر، وهو لا يزال متجمداً، ونهرب لنلوذ بالسهوب. إنها خطّة متهورّة، لكنني لا أستطيع أن أفكر بغيرها. شيء في أعماقي يخبرني باتّباعها، وبأنّ هذا

الاتباع كان مقصوداً على الدوام.

أفكر بأحلامي. بكل تلك الليالي حين اتخذتُ طريقي خارجاً إلى هناك، في النوم، لأنبش في الثرى، باحثاً عن قبري. وبذلك الحلم الذي لاقيتُ فيه فرساناً كالألهة. أنا خارجُ الآن إلى المجهول، المجهول الحقيقي، حيث لا تُعدُّ توميس، مقارنةً به، إلا مخفراً أمامياً لروما، منحطاً، وأعتقد أنني أمضي في الممرّ الواضح لقدري.

أن أتقدم دائماً هكذا، ووراء ما أعرف لا يمكن أن تكون تخوّم - ولا، فكيف ينبغي أن تكون حياة الإنسان؟ وبخاصة حين يكون شيخاً، حُرّاً، بضربة حظ واضحة، وبعنف، من الأمان المريح الذي يجعل الشيوخ سعداء للغرق في العمى، والصمم، وشلل كل رغبة وإحساس. كيف ينبغي أن تكون الحياة، إن لم تكن سلسلة مستمرة من البدايات، من الانطلاقات المؤلمة في المجهول، سائرين من حدود الوعي إلى سرٍّ ما لم نُصرِّه بعدُ، إلا في الأحلام التي تهبُّ من هناك، حاملةً ضوَعَ الجُزر التي لم نبصرها، بعدُ، في ساعات يقظتنا، كما في الرحلات البحرية أحياناً، حين تأتي أولى أغصان المرفأ القادم، مرتطمة بالسفينة، حتى في الظلام، قبل أن تبرز الأرض الحقيقية للقائنا.

صرت أكثر شجاعةً في شيخوختي، مستعداً، أخيراً، لكل التغيرات التي يجب أن نمرَّ بها، عندما نسمح، وبألم، لأطرافنا، أن تنفجر في شكل جديد، ونترك أديم جلدنا يتكسر، لتطلع الشجرة، وتغادرنا الفراشة أو الطير نحو الهواء. وهل يعني الموت سوى

الامتناع عن النماء ومعاناة التغير؟ هاأنذا الضعيف السخيف، قد نجوت. أنا آخر شعراء عصرنا، لا أزال موجوداً، لا أزال أعمل، حتى في الصمت. وإن أراد شيوخٌ آخرون أن يغادروا سرير موتهم ويغامروا في المجهول، فماذا يريد أكثر، ذلك الرجل الذي كانت حياته كلها تمريناً على المغامرة، حتى في سكون حديقته؟ أعني الشاعر.

وهكذا نمضي متعثرين، الطفل وأنا، نحو ذلك القوس المائي الغامض الذي عرفت اسمه طوال حياتي، باعتباره يعين حدود عالمنا الروماني، والذي أعطاني مقطعه، إس - تير، دائماً، حتى أيام كانت هذه الأفكار مجرد انغماس رومانسي، ارتعاشة في أعماقي، أريد أن أجعلها فعلية، أخيراً. إس - تير. لقد كان هناك على الدوام، في نوع من الانتظار، حتى حين رآته عيناى على الخرائط، باعتباره الحد النهائي لحياتي، ينتظرني لأعبه، صبوراً عاماً بعد عام، يريد وصولي. ومهما ابتعدت خطاي عنه، في الواقع، وفي الذهن، فقد ظل يحرك أمواجه، يتجمد كل فصل، يتكسر، يفيض ثانية، هامساً لي:

أنا الحدود التي يجب أن تتخطاها
إن أردت أن تجد حياتك الحقيقية،
موتك الحقيقي في النهاية .

كيف استطعت أن أحزر الأمر، أنا النائم مرتاحاً في سريرى الصغير ذي الدواليب، بـ «سالمو»، أنا الابن الثاني المدلل لمالك أرضي غني؟ ماذا علي أن أفعل بهذا النهر الأخير للعالم المعروف؟

أنا الذي أكتب قصائد رومانسية متغربة في حديقة بالعاصمة،
متخماً بالطعام، ثملاً بالخمر والكلام، أعرضُ خرافات مسرفة
عن المجهول، ما حاجتي إلى سماع مدّ في مكان ما، عميق،
بمؤخرة رأسي، يطحن جبال جليده، يشقّقها، ويندفع بأمياله
الألف نحو البحر؟ الآن، أخيراً، وفي الضوء الأول لصباح شتاء
متأخر، عند حافة الربيع، أمضي في طريقي إليه، عبر المستنقع
الباهر، حاملاً معي طفلاً لم أكن أتوقع، البتة، أن أجده ثانية في
نقطة النهاية هذه لحياتي، ومتوقفاً، حتى وسط أمواه المستنقع
الواسع، لأنصت إليه، لصوت هدير في مكانٍ ما وراء الأفق هناك،
حيث تدور طيور البحر.

حلت الساعة أخيراً. بعيداً نحو الشمال، وعميقاً في المعاشب
المتددة حتى القطب، يقع المكان الذي طالما حلمت به في سنوات
منفائي هذه، سائراً في منامي تحت الغيوم العالية المضوّاة بالقمر.
الأرض التي سأدخلها غير اليّفة، إطلاقاً.

وهناك، بعد كل هذه الفصول، النهر. إس - تير. هذان المقطعان
السحريان ولدا من أنفاسي. النهر، جامداً، صلباً، ينتظر، في هذه
الأيام الأخيرة قبل ذوبانه وتدفقه ثانية، أن أعبره. وبينما أنا
والطفل نعبه في ضوء القمر، كانت الضجة تصمّ الآذان، الهدير،
والتكسر، وانطحانُ بياضه تحت أقدامنا. وفي منتصف العبور،
بعيداً في متاهته المتألقة، لا نستطيع أن نرى شيئاً، لا الشاطيء
الذي خلفناه، ولا الآخر الذي يقع في مكان ما، أمامنا. وأخيراً،
وعيناى نصف مغمضتين إزاء الضوء الباهر، أميّزُ خطأ معتماً

رقيقاً أفقياً، حيث الأرض تعلن نفسها صلبة، من جديد.

في موضع من منتصف عبورنا، شعرت بخوف بارد من أنه قد لا يكون ثمت شاطيء آخر، وأن إستير قد يكون بلا ضفة على الناحية الأخرى، نهراً يتجمد ويفيض عند الحدّ بين الأرض والهواء، وأن كل تلك القصص عن المعاشب، وفرسانها إلعمالقة، هي أضغاث أحلام، حتى حين جاؤوا، مرعدين، عابرين جسر الجليد، وحمينا حصننا المحاصر بالثلوج، ضدهم.

لكن الأرض مستمرة. حتى وراء إستير. ثمت عالم آخر.

لقد بلغنا الشواطيء، ونحن نتهيأ للدخول.

5

لا مزيد من الأحلام. لقد تجاوزناها، ودخلنا في الحقيقة الأخيرة.

المعاشب، وقد لمسها الربيع لمسته الأولى، تتموج وتترقرق كالبحر، حتى أن التغلغل فيها، والسباحة أحياناً في العشب الذي يُطاول الصدر، يجعلان المرء يحس بأنه يطفو، ولا يمشي، بلا معالم، على مدى ما ترى العين. فوقنا، اتساعُ لسماء زرقاء، ليس فيها سوى غيوم صغيرة، عالية، مثل سقف.

أمّا هناك، وراء النهر، في الشجراء، فإن ندرة ما تتركز عليه العين، تُعتبر حرماناً للروح، وقد أمضيت وقتي كله أحنُّ إلى شيء يكسر خطَّ السماء، مثل صنوبرة رشيقة داكنة في وطني، أو شجرة كستناء تنسكب الشمس فيها، لتغدو كل ورقة كبيرة، شفافة، خضراء مضيئة. هنا، الاتساع، الفراغ، يَغْدُوَان الروح، فلا تجوع إلا لمزيد من الفضاء، لمزيد من الضياء - كان المرء لمح، فجأةً، اتساعَ روحه وفراغها، فتصالحَ معها، ممجداً، أخيراً، حريتها المفتوحة.

وهكذا يتحرك المرء هنا، كأنه في جو آخر. وكأن الهواء نفسه مختلفٌ، أخفُّ في الرأس، مثل هواء الجبال، أحياناً، عند القمم. حتى عظامي تبدو أخفّ، ومع أنني متعبٌ أكثر من التعب، بسبب هذه الأيام الطويلة من الصعود شمالاً في السماء، فإن جسمي لا يشعر بأي وجع، فقط بنوع من الضالة يعود إلى الجسم نفسه. أحسُّ أحياناً بأنني كنت أتقدمُ على مستويين مختلفين. أرائنا، كما من علو شاهق، شكلين صغيرين يشقان الأرض المعشبة في خطٍّ باهت نتحركُ من خلاله، مثل سباحين، ومن ذلك العلوّ يكونُ تعب الجسم مثل لا شيء. الوجد الطبيعي موجود، لكن لا يمكن

الإحساس به عبر مسافة كهذه، كالصرخة المنطلقة في البعيد لا يمكن سماعها. الروح تمارس ما يفعله الجسم لكن بشكل آخر. إنها لا تتقدم في خطّ مع الجسم، شمالاً، قاسمَةً ضوء الأعشاب. إنها تتوسع، لتكوّن المشهد كاملاً، كأن الفضاء نفسه أبعادها، مألوفة الأرض بأسرها، من أفق إلى أفق، وقوس السماء بالكامل، سيماؤها الآن، الهواء الأنقى، وألعدد الهائل من جزيئات النور، وكل جُزْيء مركزٌ صغيرٌ، يمكن منه الإمساك بالكل في نظرة واحدة، ومن موضعه الأسمى، في الأعلى، أرى هذين الشكّلين الضئيلين يزحفان، وهما الطفل وأنا. من موضع بعيد أماننا، أرانا نقترّب. من موضع مسافة يوم كامل، خلفنا، أرانا نبتعد.

في المساء تتحرك ظلال كبيرة على التلال، هابطة في التجاويف، ومعقّة المنحدرات، اللطيفة بما يكفي حين بلغناها. في الأيام الساكنة، لا صوت إلا للأجنحة، ولرقيق الحشرات حولنا وهي تتجمع عند جذور العشب أو ترفرف في الهواء. حين تهب ريح الشمال يكون التجمد، وتنقع الأرض. آنذاك نزحف هابطين، مثل الحشرات، تحت الجذور، ونترك البحر العظيم يطوينا. لكن حين تهب ريح الجنوب يكون الدفء مع أنفاس الربيع الأول. ومن الآن، في كل مكان حولنا، بشائر الربيع زهور برية صغيرة تبرز، عميقاً، في العشب. يرقانات يجمعها الطفل ونغذيها، أوائل الطيور العائدة أسراباً إلى رؤوس الأعشاب الناضجة - سحب عظيمة من الطيور طافية في السماء، وهابطة مثل غيم منخفض على الأعلى، مندفعة فجأة أماننا في شكل قمع كأنها منزعة من تطفلنا على كونها وهي تتغذى.

إنه عالم الطفل أخيراً. إنه ينغمر فيه مبتهجاً، ويسحبني بعده، وفي كل الجهات يجد مسرات صغيرة يثب إليها مثل أشياء ضاعت ولم يتوقع، البتة، أن يجدها ثانية. يجلب لي بيض طيور، ويقدمه لي، بلطف، على راحتيه، مشيراً إلى البقع، ومُطلقاً صيحات صغيرة كي يخبرني لأي طير هذا البيض. وفي بعض الأحيان، ومن قبضة ست بيضات أو سبع، يقدم لي واحدة لامتصّها، ناقفاً كل بيضة بساق عشب، من طرفيها، ويريني كيف يسحب ما بداخلها من نعمة. يعطيني بذوراً لآكل، وقشاً لأمضغ، يجد جذوراً حلوة، ودرنات، يحفر عليها بأظافره ويستخرجها، وينظفها بإبهامه لتكون جاهزة لي، أعلكها، أو أبتلعها حين أستطيع، مبيئاً، بأسنانه القوية، كيف تُقشر وتُسحق لباً، وتُنبدُ خيوط أليافها. يجد نوعاً من الخبازي في قرنه قطرة عسل، يميل برأسه إلى وراء، ويدبّ لسانه، ويريني كيف يأخذ القطرة الوحيدة اللزجة، ويضحك إذ أحاول أن أفعل مثله. عيناه في كل مكان، تبحثان، ونحن نسير، عن كل شيء يمكن أن نأكله فيقيتنا.

الأيام تمرّ، وأنقطع عن عدّها. النهر خلفنا، بعيدٌ.

بين وقت وآخر، وبعيداً عن إحدى قمم التلال، نرى فرساناً، ونرقب العشب ينفرج ويظلم، حين ينحدرون أسفل التل - إلى أين؟ نحو ماذا؟ نحن لا نعرف أبداً كما لن نجد أحداً منهم أقرب.

حدث مرةً أو مرتين، في الليل، أن أستيقظ، لأجد الطفل جالساً منتصباً بجانبني، وهو ينصت. أنا لا أسمع شيئاً، لكنني أعرف ما هو. إنها الذئب، قريبة. عندما يقترب أحدها، ينهض بخفة، ويقف، مرتفع القامة، في الظلام، ويصدر من حلقه زمجراتٍ

صغيرة، فأرى عيني الذئب تومضان خضراوين قبل أن يقفز مبتعداً.

لم أعد أسأل نفسي إلى أين نحن ذاهبان. وفكرة الوجهة لم تعد ضرورية لي، كما يبدو. لقد ابتلعها اتساعُ هذا المشهد، مثل ما ابتلعت الأيام بإحساسي الآن بحياة تمتدّ أبعدَ من حدود الزمن. المقيس. أهذا ما يفعله الشامان حين يغيب عن الدائرة التي خطّها بيديه، والتي يجلس فيها جسمه؟ - هذه المغامرة في فضاء ليست له أبعدٌ طبيعياً، وفي زمن قد يكون بالحسابات البشرية، بضغّ دقائق فقط، لكنه الأبدية أيضاً. أهذه هي الأرض التي عبرتها روحه في طريقها إلى القطب؟ وهل ذلك هو ما يوجد في الطرف البعيد من هذا السهل المعشب؟

القطب؟ أترانا ذاهبين إلى هناك، الطفل وأنا؟ كم سنستغرق للوصول إلى هناك؟ وفي غشية من أقوم بهذه الرحلة؟ ومن هو رفيقي؟

أسأل نفسي، وأنا أراقبه يتحرك في النور على مبعدة أقدام قليلة مني، عارياً، شأنه في كل هذه الأيام الأخيرة، ماثلاً في سكون، نصف ناهض على قدم واحدة، وجسمه كله متيقظٌ لكل ما في العشب وراءه - من هو هذا الطفل الذي يقودني، أعمق، في الأرض، أعمق، في الأرض، أبعدَ من آخر مخفر أمامي مأهول في العالم المعروف، أبعدَ حتى من الكلام، في المغاشب المتنهدة التي هي صمتٌ؟ من أين جاء؟ خارج أي حياة؟ خارج أي زمن؟ هل اكتشفته حقاً، هناك، في غابات الصنوبر، أم هو الذي اكتشفني، أو أعادَ اكتشافني، بسبب غربتي عن عالم البشر؟ أهو طفلُ أيامي

الأولى تحت زيتونات «سالمو»؟ أهو الطفلُ نفسه؟ أثمت واحدٌ فقط؟ وإلى أين يقودني، ما دمت أعرف، أخيراً، أنه هو الدليل؟ وهو الذي يُدخلني في أسرار عالمٍ لم أفهمه، للحظةٍ، قطً.

أن نطوّفَ معاً، متوغلين في الأعشاب العالية جنباً إلى جنب، نوعٌ من المحادثة التي لا تحتاج إلى لسان، تبادلٌ مدرّكاتٍ ممتاز، أمزجة، أسئلة، أجوبة، وهذا البسيط كالجو، هو في الحقيقة مجردٌ انتقالٌ ظلالٍ غيمٍ عبر أرض، أو عبر سطح بحيرة، فالأفكار وهي تخرجُ ذائبةً من دهنٍ لتدخل في آخر، هي غيمٌ وظلٌ، وليست لها بنى الكلام الشكلي. مثل جانب من الرأس يوصلُ الأفكار إلى الجانب الآخر، العارف بتوهجٍ مسبق، قبل أن تصل الأفكار، ما سيكون، فقد كان استقبَلَ ظلٌ إضاءتها.

أنا أغدو بلا جسم. أنا منظر. أحسني أتمايل وأتموّج. أحسني أتسّعُ علوّاً، نحو قبة السماء الزرقاء. إلى هناك نحن سائرون؟

تبدو الأرض، الآن وأنا أوشك أن أفارقها، جد قريبة أخيراً. أستيقظُ فأرى جذور العشب هائلة الحجم، بالنظر لقربها من حذقتي، حتى لكأنني أنظر من خلال جذوع أشجار في غابة مجهولة. وبين الجذور، عشرات الآلاف من ذرات التراب المكوّرة، تمسكها، وتغذيها، دقيقة جداً، مرئية جداً، فأدركتُ فجأةً العملية التي يتم بها تدفقُ الطاقة، إلى أعلى، من خلال السيقان الذهب. إنها شبه شفافة هذه النباتات اللطيفة الطويلة، وبإمكان المرء أن يحدّق في داخلها ويرى النسغ يصاعدُ في فقاعات. إنها أعمدة نور،

قنوات منتصبّة تغتذي بها الأرضُ السماء. وفي قمتهَا، البعيدة،
حتى لتبدو ممتنعة عن البلوغ، رؤوس العشب الشبيهة بالريش،
تكتنز وتوميء في النسيم، ويصعد إلى بذورها الحلوة، كلُّ غنى
الأرض.

حول قاعدة هذه الجذور، لائذةٌ كما في غابة، وباحثةٌ عن طعامها،
المخلوقاتُ الصغرى: الأرضة، النمل، أبو مقصّ. الخرطون،
الخنافس، عالمٌ ثانٍ، ونظامٌ للوجود مختلفٌ، مزدحمٌ ومنشغلٌ في
المسار اللانهائي للخليقة والبقاء والموت. وها نحن أولاً جئنا
لننضمّ إليهم. دفء الأرض تحتي، وأنا متمدد ليلاً في العراء،
مدهشٌ، كأنه دفء جسم آخر امتصّ الشمس طوال النهار، والآن
يمنحُ ثانيّةً، ما اختزنه من حرارة. عندما أخذ حفنةً من هذا
التراب، وأشمُ روائحها الرائعة، أعرف فجأةً ما أنا مكوّنٌ منه،
كان هذه القبضة من التراب الأسود فتحتُ بغتةً، بين جسمي
وبينها، كما بينها وبين سيقان العشب، ممراً تجري فيه كينونتنا
المشركة. لم أعد أخاف التراب، أتمدّد لأنام، وأتساءل، إن كنتُ في
طلاقة النوم، سوف أشرّس جذوراً على طول جسمي، وما أن
أدخل في الحلم الأول، حتى أشعر بأن هذا قد بدأ، وبأن مساماتي
المنفردة، تنفتح لذرات التراب المنفردة. وعندما أفيقُ أكون مرتاحاً
تماماً للعملية.

سأسكن عميقاً في التراب، أعمق مما أفعل في النوم، ولن أضيع.
نحن مستمرون مع التراب في كل جزيئات كينونتنا الطبيعية، مثل
ما أننا مستمرون مع السماء في تنفسنا. بين أجسامنا وبين العالم
وحدة وتبادل.

ربما لهذا السبب، يبدو تَفَتُّحُ الأرض حولنا، في جدة الربيع، هذه المرة، كأنه يجري في طرف أعصابي نفسه. تَفَتُّحُ النَوَّارةِ الهَرِّيَّةِ الصغيرة التي نراها أحياناً على الشجيرات، لزوجة الأوراق الجديدة التي تبدأ مثل مستدقة لامعة، ثم تنفتح من تلقاء نفسها، فجأةً، مثل قلوب صغيرة مسنَّنة. كل هذا، وفي هذا المدى اللصيق، يبدو معجزاً، وكذلك انفجار الأجنحة الكثيرة في الهواء.

غشاء يتوتر ويتوتر، يغدو شفافاً، حتى يتبدى مرئياً، بكل أجزائه، المخلوق الذي كان في الداخل يتحرك ويُفَيِّق، مرغماً غلافه كي يكون على وشك الانفتاح، إلى أن يحل الوقت الذي يصير فيه جناحاه المطويان آمنين في معرفة الطيران، وفي كل تقلبات الهواء، وحينذاك يخفق حرّاً بجناحيه. الأرض بأسرها، تُصْرُ وتُتَوَر في الظلام. الأصواتُ هيَّنة، لكن الأذان الملتصقة بالأرض تسمعها تماماً. أفكرُ أحياناً، أنني لو أنصتُ جيداً لسمعتُ جسمي كله يتفتح بالطريقة ذاتها، مُزيحاً الغلاف الرقيق الشفاف الذي لا يزال يحتويه، ويمنعه من أن ينفجر في هيئة جديدة، أحسَّتْ بنفسها، منذ الآن، باعتبارها كائناً، شيئاً مختلفاً عما نعرف، كما الفراشة من الخادرة. الطفلُ أيضاً، يبدو لي كمن اكتسب كينونته جديدة هنا، ولم أعد أسأل نفسي عن أذى يمكن أني سببته له. هو، كذلك، نجا، من الفصل الذي أمضاه بين البشر. وإن فيه لطاقةً جديدة، فهو أخف، ويتحرك أسرع على الأرض. منتبّه لكل حركة في الريح، وكل حالة في السماء فهي تنبئنا بالجو، غداً، وبعد غد، منتبّه إلى كل رائحة من مئات الحشائش والأعشاب والبراعم المكتنزة الصغيرة. التي تنشر حولنا جزيئاتها غير المرئية. هذه الحشائش وطفيلياتها، الديدان، اليرقات، الجنادب المجنحة، هي

التي تزودنا الغذاء. الطفل يجمعها حيثما تعلقت. إنها تغزو حلقاتها على الأرض. مخلوقٌ يرعى، يأخذ النعمة، يوصلها إلى قم مخلوق آخر. نحن في آخر السلسلة. بُكرة كل يوم، يصطاد الطفل، مُطعماً إياي الآن من عالمه، كما أطعمته يوماً من عالمنا.

أرقبه، واقفاً في الغسق، في طرف أي مكان كنا وجدناه لنستريح، الليل، محدقاً نحو الشمال في الاتساع الهائل للعشب.

أيعرف ما هناك؟ أهو يعود إلى مكان معروف، ويقودني إلى هناك؟ الآن، أغدو، كل يوم، أقل فأقل قدرةً على المضي إلى أي هدف - لم يعلن بعدُ وسط أميال العشب - نحن متجهون إليه. أيعرف إلى أين يأخذنا؟ أشعرُ بتلهفه إلى التحرك أماماً، حتى وهو واقفٌ في الغسق، ساكنٌ تماماً إزاء حمرة السماء، موجّهاً عينه إلى أمام، حيث سنكون، عند قمة ذلك المرتفع الأبعد، في هذا الوقت من ليل الغد. أراقبه وأتساءلُ، تُرى، أي شيء في ذهنه يجعل لرحلتنا هدفاً. إن جسمه بأكمله يَنْشُدُ نحو مسافة لا أستطيع أن ألتقطها من مكاني وأنا متمدد في الظل.

إنه مليٌّ بها، بتلهف مقمور إلى المديّات الأبعد لما يمكن أن يراه. وأنا أشعر بذلك، متقدّاً فيه، وهو ينحني كي يأتيني بما وجده لنا من طعام، فارزاً البذور، بأناءة، لي، أو موضعاً لي كيف أتناول حلازين الماء، أو معصرة قطرات ماء من خرقة ليلبل شفتي. إنه أقربُ الآن مما ظننته ممكناً. في تلك الأيام الأولى، لم يكن ممكناً إدراكُ أنه سيكتشف في نفسه هذه القربى الرؤوم مع البشر، التي تتبدى الآن في كل لحظة من اهتمامه بي.

ومع هذا، وبالرغم من كل هذا القرب، يبدو منتسباً، أكثر فأكثر، إلى عالم يقع بعيداً عني تماماً، وبعيداً عن خيالي البشري.

لأنه دخل، في آن واحد، عالمين منفصلين، أراقبه يركع في إحدى مهماته المتواضعة، يطعمني، أو ينظفني من وَصَرٍ شيوخوتي، وفي الوقت نفسه، حين أصدُّ نظري، أراه واقفاً على مبعدة قدم، مثل ما رأيته أول مرة، في غابة الصنوبر، شخصاً نحيلاً، متوهجاً، عارياً في الغسق، مبتعداً عني في ذهنه، مُنشدّاً إلى الأمام، إلى أي حياة، مهما كانت، حياة تقع وراء لحظتنا المشتركة، حياة لم أخذها بالحسبان، ولسوف يكون حرّاً في دخولها، فقط حين تنتهي رحلتنا المشتركة. أردتُ أن أستنقذ من الحيوان الذي فيه، فكرة عما يعني أن يكون أحدُ بشرٍ. وأنا أتساءل إن كان لم يشرع، منذ الآن، يكتشف في نفسه، مخلوقاً آخر. أهو، في الحقيقة، كما ظنه القرويون (رأيهم كان على الدوام أبسط من رأيي، ولهذا، فهو أقرب إلى الصواب) من نسل الآلهة؟ أهي طبيعته الخاصة، باعتباره إلهاً، جعلت جسمه يتوتّر إلى أمام، في هذا الحد من حياته، حيث أي طفل طبيعي، قد يكون موشكاً على الرجولة، وعلى الدخول في امتثالاته، باعتباره رجلاً؟

إنه ينتقل خارج الرؤية، مُطوّفاً هناك، غامضاً ومتوهجاً، تماماً وراء قدرة عيني على تمييز ما ترى. وفي الوقت نفسه، يجلس منحني الظهر، مقتعداً الأرض، ويداه الخشنتان ذواتا الأظافر المشققة المتكسرة، جدّان، لتهيئ لي، الطعام الذي لا أكاد أبتلعه الآن. إنه يشقى كثيراً، وهو يمضغ لي نصف مضع، الدرنات الليلية كي يجعلها سائغة، ويطعمني اللُّباب، مثل ما

رأى الحيوان يفعل لصغاره.

وهكذا، وصلنا. وصلنا إلى المكان، لقد خطوتُ خطواتي الأخيرة، بالرغم من أنه لا يعرف هذا، حتى الآن، إذ ابتعد، كالمعتاد، كي يأتي بعلف وجبتنا المسائية. من هنا أصدُّ، أو أخفضُ نفسي، حبةً إثر حبة، بين أيدي الآلهة. إنه المكان الذي حلمت به طويلاً، هناك في «توميس»، إلا أنني لم أستطع أن أجد في كل جولات أحلامي، تلك النقطة على وجه الأرض، حيث أختفي.

لم يكن الأمر كما تخيلتُ. ليس ثمت ذئاب. إنه لنورُ شمس صافٍ، في نهاية يوم مثل الأيام الأخرى التي أمضيناها هنا، في العراء، يوم ربيعي دافئ لطيف. القبرات في الهواء، والحشرات تصخب تحت أقدامنا. الطفل هنا. أراقبه يمضي مبتعداً على حافة الجدول، ينحني، يركع، ينطلق ثانية في السرعة التي منحها الربيع، وهو يجمع الحلازين من بين الطحالب والأعشاب.

غريب أن أعود، فأنظر إلى الأراضي الشاسعة التي جاهدنا لنقطعها كل تلك الأسابيع، عبر البحر، عبر حياتي في روما، عبر طفولتي، لألحظ كيف أن آثار الأقدام تؤدي بوضوح إلى هذا المكان، وليس إلى سواه، إنها تشع في رأسي، هذه الخطوات كلها، وأستطيع في ذهني أن أتبعها، عائدًا، أحسّ بنفسي مع كل خطوة مستردّة، أصغرُ، حتى أصل إلى ذكرياتي المبكرة، وإذا بي أجلس في النور المتفاوت لأشجار الزيتون عند حافة مزرعتنا، وثمت راع للماعز ينعس مستنداً إلى إحدى الزيتونات، رأسه الخشن مائل إلى الخلف، وحلقه مكشوف، كأنه كان ينام هكذا، مثل ما أتذكره،

منذ ستين عاماً تقريباً. معزى كانت منتصبه على قائمتيها الخلفيتين لتأكل أوراق العنب الطرية. إنه الربيع. إنه الصيف. أنا في الثالثة من عمري. أنا في الستين.

الطفل هناك.

يلتفت لحظة، ناظراً إليّ، عبر كتفيه اللتين يلمسهما نور الشمس، ثم ينحني ليلتقط حلزوناً آخر من حافة الجدول. ينهض ويمضي. الجدول ينفذ نوره حول كعبيه، وهو يخوض أعماق، ثم يعتلي صخرة منسأة ويتوازن لحظة في الشمس، يثب، يثب ثانية، ثم يتحول صاعداً مع الجدول على الضفة الأخرى، التي هي حصباء، كل حصاة فيها بيضاء، سوداء، رمادية، منتقاة، ولامعة في ضوء الشمس الأخير، كأنها في موزاييك، حيث يتوقف، ويلتقط حلزوناً، اثنين، ثلاثة، ومع الجدول المترقرق، يقفز خارجاً، داخلاً، ويسير، راكلاً الحصى، منغمساً لحظة في بهجته الطفولية لكونه حراً.

بإمكاني أن أناديه. أنا أملك صوتاً لذلك. لكنني لا أفعل. بمناداته قد يفوتني امتلاء هذه اللحظة وهي توشك أن تتكشف، وأنا أرغب كثيراً، مع نهايتي هنا، في أن أكون منفتحاً على كل ما يظل أميناً لي.

الامتلاء هو في اتجاه الطفل بعيداً عني، هو في خطوه هذا الخفيف البهيج، عارياً، داخل مسافته الخاصة أخيراً، وهو يبهت داخل وخارج الضوء الباهر المنبعث من الماء، وينحني ليلتقط - ماذا؟ حصباء؟ تلك التي انجذبت إليها عيناه؟ الحصاة الأكثر رمادية،

والأجمل خطوطاً؟ أم انه نسي كل غرض، يتحرك لبهجة الحركة فقط، مخوضاً أعمق في النور، وتاركاً الحلازين الحية الصالحة للأكل تتساقط من بين يديه، الحلازين التي لم تعد ضرورية لحياتي، وبالإمكان تركها الآن لتعود إلى حياتها، والحصباء التي حيثما مسّت الأرض ارتدت فجأة كالفراشات، التي تشكل أجنتها البراقة قوس قزح في الجدول.

هو يمشي على نور الماء. وبينما أنا أرقبه، يخطو خطواته الأولى مبتعداً، ويسير ببطء، وبعيداً الآن، في المسافة الأعمق، فوق الأرض، فوق الماء، فوق الهواء.

إنه الصيف.

إنه الربيع.

وأنا سعيد إلى حد لا يقاس.

إلى حد لا يحتمل.

أنا في الثالثة من عمري.

أنا في الستين.

أنا في السادسة.

أنا هناك.

انتهت الرواية

مؤخّرة: ملحوظة حول المصادر

نعرف القليل القليل عن حياة أوفيد، وقد جعله غياب الوقائع هذا، نافعاً باعتباره الشخصية المركزية لحكايتي، وسمح لي بحرية الابتداع الطليق، فما أردتُ أن أكتبه ليس رواية تاريخية ولا سيرة، بل قصة تمدّ جذورها في الحدث الممكن.

الأمور التي نعرفها، مصدرها الشاعر نفسه: مكان وتاريخ ميلاده، موت أخيه الذي يكبره بعام واحد في ميعة الصبا، والمنفى الشهير طبعاً – مع أننا لا نملك تفسيراً لسببه. أوفيد ممثلٌ إلى حد كبير، ميالٌ إلى المبالغة، بُغية التأثير، لهذا فإن ما يخبرنا به لا يمكن اعتماده كثيراً. استخدمت قصيدته عن المنفى، «تريتيا» في وصفي «توميس» واعتمدت على الكتاب الثالث من «فاستي»، ودراسته عن الأعياد الرومانية الرئيسية، في تفاصيل عيد «باريليا». أما إشارتني إلى القبور السيّثية فهي من هيرودتس.

أما اللقاء مع الطفل، الذي يشكل القسم الأكبر من هذا الكتاب، فليس له أساسٌ في الواقع، لكنني تثبّتُ من وصفي اعتماداً على أفضل حصيلة لظاهرة كهذه، ملحوظات ج.م.ج إيتارد، الدقيقة، عن فيكتور، صبيّ أفيرون المتوحش، التي لا يمكن لأي كاتب إهمالها.

إن استغراق إيتارد هو استغراق المعلم، المتأّتي من القرن الثامن عشر، والمعنيّ أكثر بمشكلات الخبرة الفطرية والمكتسبة. وجزئياً، من أجل الانطلاق في ميدان ذي إمكانات مفتوحة أكثر، جعلتُ حكايتي تدور في مكانٍ ناءٍ يكاد لا يعرف أحدٌ شيئاً عنه،

وفي زمان هو فجر المسيحية، حين كان الشعور بفعل القوى الغامضة قائماً، وحين كان التفكير لم يستقرّ، بعدُ، على صيغة عقلانية.

وفي وقت غرقت فيه الفترة الرومانية، قرابة ألف عام، في قتام كثيف، صار أوفيد شخصيةً شعبيةً في الميثولوجيا، وكان من نتائج البحث عن قبره تقدّيسُ مواقع أسطورية لكنها زائفة، يمتد بعضها بعيداً عن مكان منفاه الأصلي، حتى ليبلغ أواسط المجر. إن التاريخ الفعلي لموته، وسبب هذا الموت، يظان غامضين.

كان أوفيد، لقارئ عصر النهضة، أحدث الشعراء اللاتين، وأكثرهم مألوفيةً وقرباً، وإنسانيةً. كان نزوعه إلى الشك، موازناً بحبّ الخرافي والمتجاوز. هذه الميزة الحديثة، حاولت إعادة خلقها، مع أنّ المصير الذي حمّله إياه وراء حقيقة إبعاده إلى «توميس» من الأمور التي كانت ستدهش الشاعر الحقيقي، إذ نسبت إليه قدرةً على الإيمان لا يمكن أن نجدها في كتاباته. لكن هذه هي النقطة الأساسية بالضبط. كان غرضي أن أجعل شاعر «مسخ الكائنات» الذرب، يعيش، فعلاً، ما كان، في وجوده السابق، مجرد مناسبة للتباهي الأدبي المتألق.

رسالتان بين المترجم والمؤلف

١٩٩٥ / ١٠ / ١٥

سيدي

أَن كنت في سيدني، قبل حوالي خمسة أشهر، سألت عنك، وحاولتُ، عبثاً، الاتصال بك، لكنك كنت في إيطاليا، كما قيل لي.

لقد قرأت روايتك الممتازة " حياة متخيلة "، وروايتيك القصيرتين: " لعبة الطفل " وخبز الآتي " إلا أنني وجدت خصوصية ما في " حياة متخيلة "، ربما لأنني شاعر منفي منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.

لقد ترجمتها، فعلاً إلى اللغة العربية.

وما كان الأمر هيناً!

والآن، أفكرُ بنشرها، لكن ذلك مرهونٌ بموافقتك.

لقد وضعت للرواية عنواناً ثانوياً، هو " أوفيد في المنفى "، بسبب الطبيعة الثقافية للقاريء العربي.

أرجو أن أعرف جوابك المعتمر.

المخلص

سعدي يوسف

١٩٩٥ / ١٠ / ٢٥

عزيزي سعدي يوسف

أشكرك للفاكس الذي يحمل نبأ اعتزامك نشر نسخة عربية من
" حياة متخيلة " .

لقد تأثرت بإخلاصك للكتاب، وصرفك وقتاً كثيراً، وطاقته كبيرة،
لتقديمه في لغة أخرى.

سأكون سعيداً بتحقيق المشروع، متمنياً لك حظاً سعيداً معه. أما
عن الحق الرسمي في النشر، فعليك الاتصال بوكيلتي ديبورا
روجرز من كولجريدج وهوايت، لندن، وإخبارها بتفاصيل
النشر وعدد النسخ المطبوعة، الخ...

وأنا متأكد أنك ستجد من لدنّها عوناً.

مع كل تمنياتي

ديفيد معلوف

هذا الكتاب الأكثر تحضرًا، والمدوّن ببساطة وبهاء، هو من
كلاسيكيات عصرنا، وسيظل على الدوام عملاً كلاسيكيًا.
هيلين فريزل، " مجلة الكتاب الأسترالي "

لقد أبدع الشيء النادر، روايةً تطلب من القارئ، ما تطلبه
القصيدة منه، اقتراباً وانتباهاً مفعماً بالخيال.
" أخبار الكتاب البريطاني "

لقد جاء ديفيد معلوف بعملٍ ذي ذكاء وخيال غير اعتياديين.
كاثًا بوليت، " نيويورك تايمز "



ديفيد معلوف : شاعر وروائي أسترالي. حصل ديفيد معلوف
على جوائز أدبية عدّة بينها جائزة باسكال في العام ١٩٨٨،
وجائزة الكومونويلث للقصة في العام ١٩٩١، وجائزة فمينا
إترانجيه الفرنسية لأفضل رواية أجنبية.

يطلب هذا الكتاب من دار المدى

تلفاكس ٦٩٥١٥٠ (٦-٩٦٢)، ص.ب ١٨٣٧٦٤ عمان - الأردن